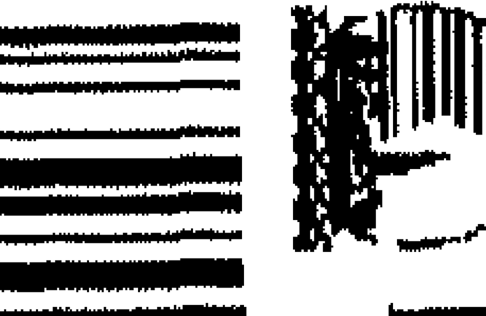


عبد الناصر .. والذين غدروا به

عادل ثابت



مطبوعات

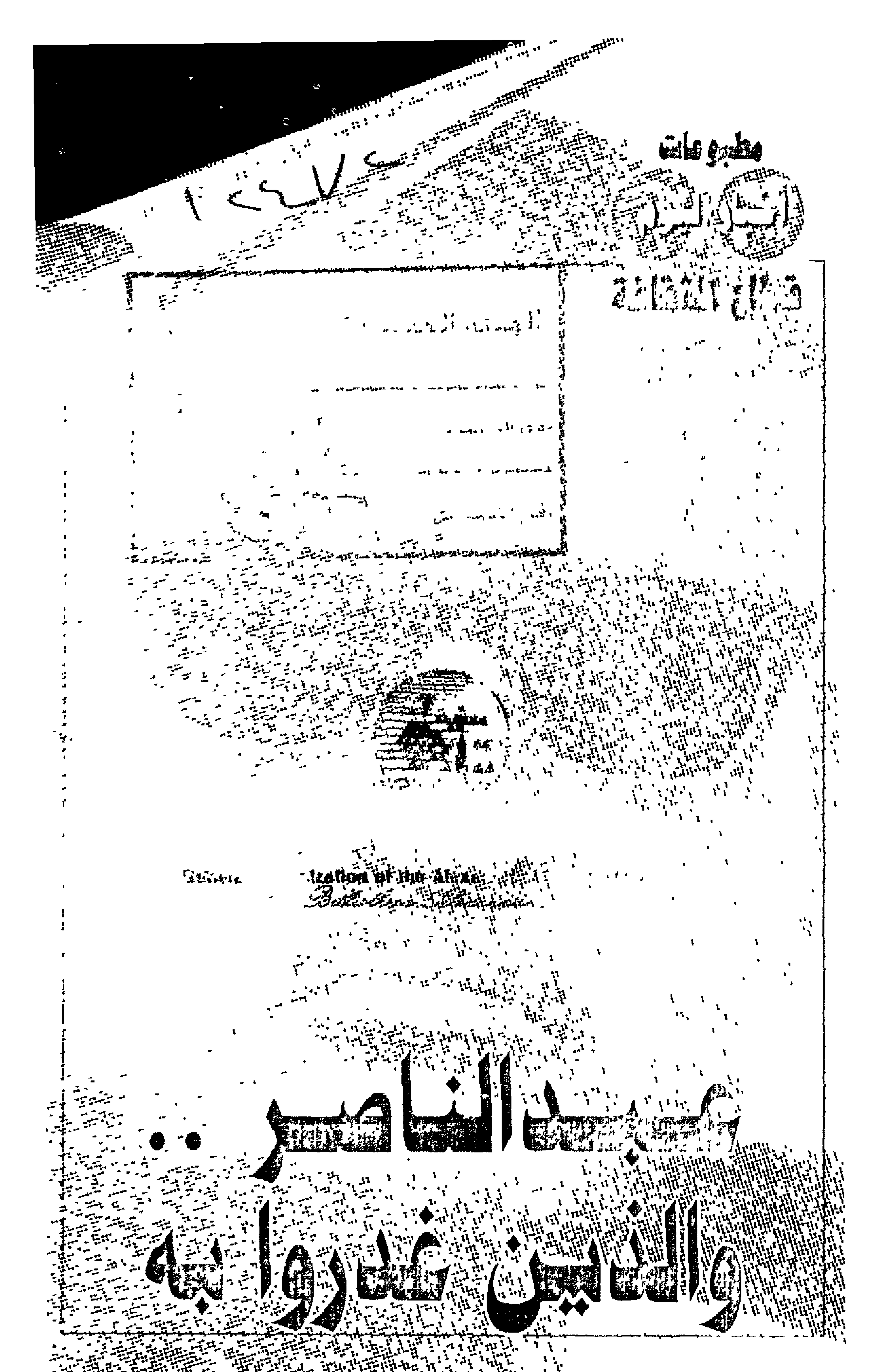
أخبار اليوم

قطاع الثقافة

رئيس مجلس الإدارة :

إبراهيم سعده

دار أخبــــار اليــــوم
قطـــاع الثقـــافـــة
جمهورية مصر العربيـة
٦ ش الصحافـة القـاهـرة
تليفون وفاكس : ٥٧٩٠٩٣٠

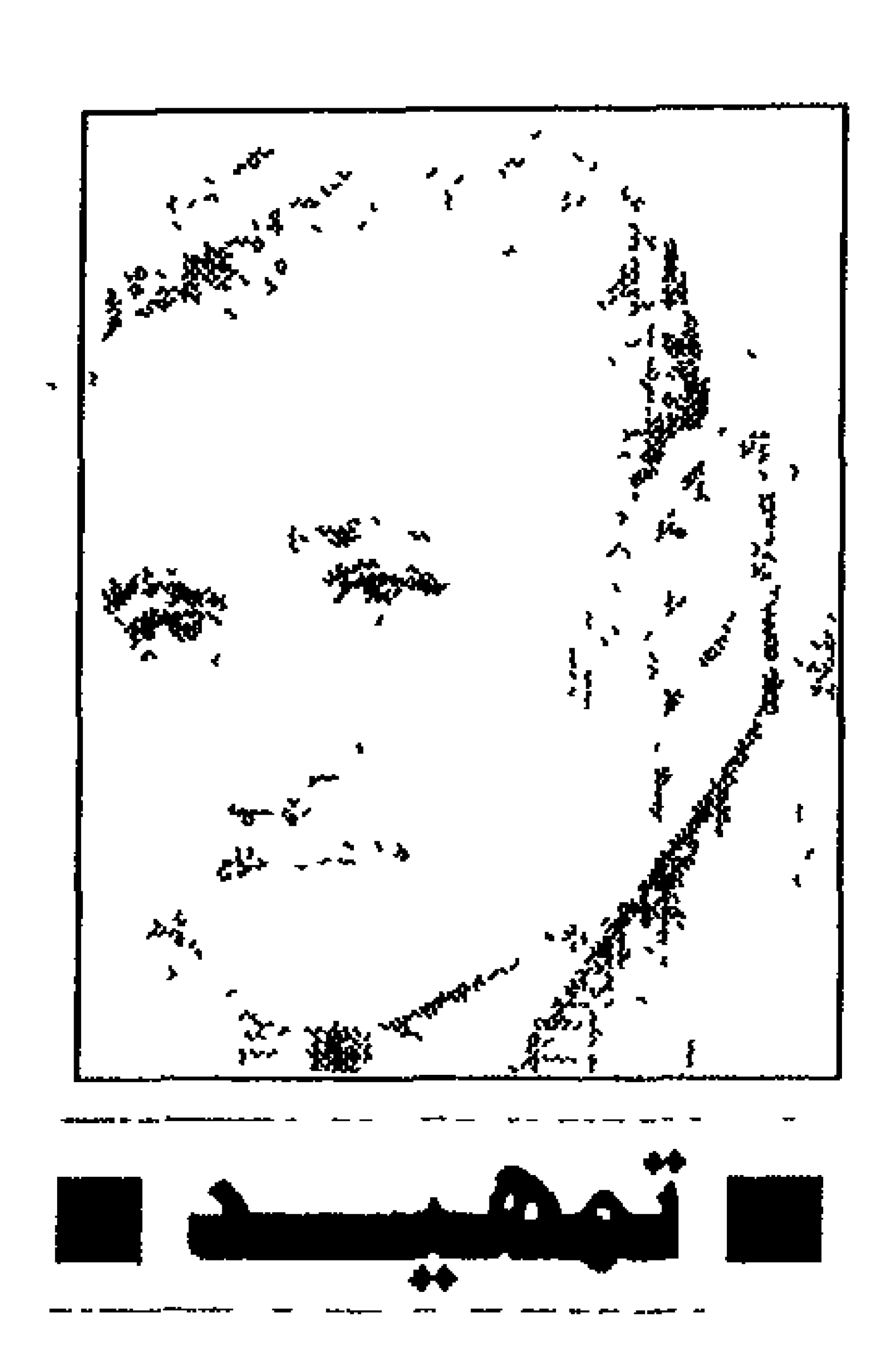

مطبوعات
أخبار اليوم
قطاع الثقافة
عبد الناصر ..
والذين غدروا به
■ عادل ثابت ■

■ عادل ثابت ■



■ تصميم الغلاف والإخراج الفنى

جمـــال عفيـفى



■ تمهيد ■

تتأثر حياة الشعوب ومصائرها ـ بما لا يدع مجالا للشك ـ أبلغ التأثر بشخصيات حكامها وعلى الرغم من أن كل سمات القيادة هى سمات لازمة لشخصية الحاكم إلا أنه يظل انسانا معرضا ـ كبقية البشر ـ للخطأ والمرض والموت

وكما فعلت فى كتابى السابق عن الملك فاروق فإن

مذكراتي المنشورة في هذا الكتاب تتركز على خلفه الرئيس جمال عبدالناصر الذي يعد - في تصوري - ضحية اخرى لخيانات متعاقبة إلا ان أول المسئولين عما آل إليه عبدالناصر هو عبدالناصر ذاته ذلك لأنه اهمل مرضه وألقى بنفسه في حياة مشحونة بالضغوط وردود الأفعال المبالغ فيها

وقد ادت به هذه الضغوط إلى التعرض لمخاطر «البارانويا» وهو مرض يؤدي بصاحبه إلى استبعاد أقرب الأصدقاء والمريدين الأمر الذي قد ينتج عنه عداوات وخيانات في المستقبل

ولذا فقد كان على عبدالناصر ان يواجه مؤامرات من قبل أقرب أصدقائه ومستشاريه مثل رئيس أركانه عبدالحكيم عامر، ورئيس جهاز المخابرات (المصاب هو الآخر بالبارانويا) صلاح نصر

لقد حدث هذا منذ ما يقرب من ٣٥ عاما سرت فيها مصر باحداث شتى ولولا حرية التعبير التي أتى بها عصر مبارك لما قدر لهذا الكتاب أن ينشر في مصر وعندما كتبت هذا الكتاب كان هدفي الوحيد هو نقد وتقييم اخطاء القيادة الناصرية دون مداهنة او مواربة. ولعل الجهد المبذول في هذا الكتاب يسفر عن اثارة الجدل حول عبدالناصر والناصرية

ولعل مذكراتي هذه تنبع من حكم قربي للقيادة الناصرية اذ كنت في ذلك الوقت أعمل محررا وناشرا لجريدة اقتصادية وسياسية تخدم احتياجات السياسة المصرية الخارجية، وقد اتاح لي ذلك ان أكون شاهدا على مرض الرئيس. اذ أصبحت أنا بعد ذلك ضحية لهذه البارانويا المتطورة الا انني على قناعة تامة بأن عبدالناصر - مثله مثل فاروق - له الحق في ان ينصفه التاريخ

واحدة من السمات السلبية التي يتسم بها المصريون هي نظرتهم لقادتهم إما في صورة شياطين أو في صورة آلهة فبالنسبة لبعض

المصريين لا يصدر عن القادة إلا كل السـوء، وبالنسبة لبعضهم الآخر
فهؤلاء القادة معصـومون تماما. ولذا فإننا أحيـانا كثيرة ما ننسـى أن
الرؤساء والحكـام هم بشر وليسوا فراعنة مـؤلهين انهم مثلنا جميعا
معـرضـون للخطـأ والضعف، إلا أن لهم الحق في أن ينصفـوا على أن
يكون هذا الانصاف والتقييم موضوعيا وعادلا



مقدمة

قد تستدعى المشابهة بين عنوان هذا الكتاب وعنوان سابقه عقد مقارنة بين فاروق وعبدالناصر. وعلى الرغم من صعوبة عقد هذه المقارنة إلا أن الاثنين يشتركان فعلا فى بعض الأمور. فكلاهما قد حكم مصر، وكلاهما بدأ حكمه بطموحات وآمال كبار، كما انتهى حكم كل منهما بكارثة ففاروق تنحى عن العرش بينما أودى

المرض بحياة عبدالناصر

تميز فاروق عن عبدالناصر بصحة جيدة وحالة نفسية أكثر ثباتا، ولكنه افتقر مع ذلك إلى النشاط والحركة الدينامية التي نمتع بها عبدالناصر، هذا فضلا عن ارادة عبدالناصر القوية التي لا يعيبها شيء لقد كان لعبدالناصر القدرة على اتخاذ القرارات ـ سواء أسفرت عن نتائج سلبية أو ايجابية ـ بينما افتقر فاروق إلى هذه القدرة كما افتقد إلى الهدف الواحد الواضح. على أن ما يجمع الاثنين انهما وضعا ثقتيهما في أيدى أشخاص لا يتمتعون بالكفاءة فالجيش في عهد فاروق كان على رأسه أحد قادة الشرطة السابقين وكان غير مؤهل كما افتقر إلى الخبرة أما الجيش في عهد عبدالناصر فقد كان على رأسه واحد من المقربين من عبدالناصر وهو عبدالحكيم عامر إلا أنه كان مازال شابا يفتقر للكفاءة.

لقد حدث في عصر كل من فاروق وعبدالناصر أحداث عسكرية جسيمة إلا أنه يوجد فرق في الحالتين. ففاروق لم يتدخل في العمليات الحربية التي كانت تؤديها قواته، وعلى الرغم من ذلك فقد وجه إليه اللوم بعد هزيمة ٤٨ أما عبدالناصر فكان مسئولا بشكل مباشر عن الأخطاء وسوء الادارة التي أدت جميعا إلى كارثتين عسكريتين في عامي ١٩٥٦ و١٩٦٧

أما عن الاقتصاد المصرى، فقد تمتع في عهد فاروق بالاستقرار فقيمة الجنيه المصرى كانت أكبر قليلا من قيمة الجنيه الاسترليني، كما كان الرصيد القومي بحالة جيدة اذ إن مصر بدلا من أن تكون هي المدينة كانت هناك دول أخرى مدينة لها

لا يمكن انكار وجود قدر معين من الفساد في عهد فاروق وإن كان الفساد مرضا اجتماعيا ملازما لكل المجتمعات إلا أنه كان محدودا في عهد الملك ولم يصل إلى المستوى الذى وصل إليه في الحقبة الناصرية

إن هناك شيئا واحدا مؤكدا وهو أن الاقتصاد المصرى ومستويات المعيشة كانت فى حالة جيدة تماما حتى ليلة تنحي فاروق أكثر كثيرا مما أصبحت عليه عندما مات عبدالناصر.

لكى نكون منصفين يجب أن نشير إلى أن المشاكل السكانية التى ابتلى بها عبدالناصر لم تكن موجودة فى عهد فاروق. فمجموع الأراضى الزراعية التى كانت موجودة وقت فاروق كانت كافية تماما لاطعام العشرين مليون نسمة الموجودين وقتها وبمرور الوقت تضاعف عدد السكان إلى أن وصل الآن إلى ٥٤ مليونا بينما ثبتت نسبة الأراضى الزراعية عند ٤٪ وهنا نضع أيدينا على أحد أكبر الانتقادات التى يمكن أن توجه لعبدالناصر

فلقد ثبت أنه بالامكان استصلاح ما لا يقل عن ٢٩ من الأراضى المصرية بغرض الزراعة، ومن ثم فإن استثمار مصادر الدخل القومى فى استصلاح الارض كان حتما سيقلل من التهديد السكانى إلا أن عبدالناصر كان قد وقع أسيرا للأفكار الاقتصادية ذات الأهداف السياسية التى قدمها له الماركسيون المصريون والمستشارون الروس. وقد أدت به هذه الأفكار إلى الاصلاح الزراعى الذى نتج عنه ليس فقط القضاء على عدد غير قليل من ملاك الأراضى الزراعية الأكفاء ولكنه أضر بانتاجية وخصوبة الأرض الزراعية فضلا عن ذلك فقد اتجه عبدالناصر بشدة إلى الاستثمار الهائل وغير الحكيم فى التصنيع وذلك على نحو مدمر ويفتقر إلى التخطيط السليم. فلو قدر لمصر أن تستثمر جُل رأسمالها فى مجال الزراعة واستصلاح الأراضى لأصبحت فى حالة مختلفة وأكثر رخاء اليوم

يميل كتابى اذن إلى أن يكون ملاحظات شخصية تتخذ شكل التقييم النقدى والموضوعى لاسهامات الحقبة الناصرية فى تاريخ مصر الحديث ويهدف هذا الكتاب فى مجمله إلى وضع الأمور فى

نصابها الصحيح فيما يتعلق بتاريخ تلك الحقبة.

لقد كان لى بحكم عملى كمحرر وناشر للجريدة الاقتصادية السياسية المصرية تعاونا وثيقا مع القيادة العسكرية والاقتصادية كما أن عبدالناصر نفسه كتب أول مقال فى جريدتى ووقعه بنفسه وقد كان دائما يدافع عن جريدتى ويظهر لى الود حتى أصابته «البارانويا»، ولذا فليس لدى أى دافع يجعلنى أكره عبدالناصر بل كان قصدى هنا أن أقدم لقرائى تقييما موضوعيا لفترة حكمه.

ووفاء لذكرى عبدالناصر، وبغض النظر عن النقد الشديد الموجه إلى عبدالناصر سواء فى مصر أو خارجها فقد شعرت بأهمية ابراز جانب مهم فى شخصيته وهو حالته الصحية.

لقد عانى عبدالناصر بشدة من المرض، وعلينا أن نأخذ ذلك في الاعتبار عند النظر فى سياساته ومعاملته للمقربين له. وقد تكون شهادتى هنا لها قيمتها خصوصا لكونى أحد ضحايا هذا المرض، فقد سجننى عبدالناصر دون أى سبب له مبرراته، وفى السجن تعرضت لمعاملة مهينة لا يعامل بها إلا المجرمون.

لقد عانى عبدالناصر على مدار حياته من متاعب صحية أدت بمرور الوقت إلى مرضه الأخير الذى أودى بحياته فى سن صغيرة

لقد دخل عبدالناصر الحياة السياسية وهو يحمل بداخله احباط نفسيا ازاء كل سلطة وخصوصا السلطة الحاكمة فى حقبة فاروق، ويرجع ذلك إلى طفولته وعلاقاته العائلية خصوصا علاقته السيئة بوالده الذى تزوج للمرة الثانية من سيدة ثرية بالاسكندرية

كما أصيب بالاحباط مرة أخرى فى محاولته الأولى للالتحاق بالأكاديمية الملكية العسكرية وذلك لافتقاره إلى شخصية بارزة تدفع به، ولكنه قبل بعد ذلك نتيجة لتغير اللوائح.

وعند التحاقه بالخدمة توالت عليه الاحباطات النفسية، والضغوط

التى تعرض لها خصوصا عند حصار الاسرائيليين لوحدته العسكرية فى الفالوجا. وقد أدت كراهيته المتأصلة للسلطة، وحنقه على ما اعتبره خيانة الملك وقواده إلى المراحل الأولى «للبارانويا» التى أسفرت عن عواقب وخيمة فيما بعد.

لقد كانت سنوات حكم عبدالناصر الأولى ـ التى كان عليه فيها أن يواجه العديد من المؤامرات بالاضافة إلى محاولة لاغتياله ـ كافية جدا فى رأى أطبائه لتطور مرض السكر لديه. كما أن كثرة المشاكل التى تعرض لها أدت به فى النهاية إلى حالة فصام واضحة. وكثيرا ما كان الصحفيون الأجانب يصابون بالدهشة عندما يروا أمامهم شخصية مهذبة وشرسة وهى تنقلب فى لحظات إلى شخصية خطيب يخطب فيهم باندفاع وتهور.

ولعل اهمال عبدالناصر فى علاجه لمرض السكر ليس بالشىء المستغرب على مريض الفصام فقد شملت شكوكه أيضا أطباءه ونصائحهم وقد ظلت مشاكل السكر فى تفاقم مستمر حتى وصل معدل السكر فى الدم إلى نسبة خطيرة تتراوح ما بين ٤ إلى ٥ جرامات فى اللتر. كما كشفت فحوصات الدكتور المفتى طبيب عبدالناصر آنذاك عن اصابته أيضا بتصلب الشرايين وعلى الرغم من الاستعانة بأحد الأطباء الروس وهو الدكتور «افجوينى شازوف» الذى أرسل خصيصا من الاتحاد السوفيتى فإن حالة عبدالناصر الصحية ازدادت سوءا، وأسفر ذلك عن أزمة قلبية حادة أصابته فى سبتمبر عام ١٩٦٩ اضطر معها إلى الاختفاء من الحياة العامة لمدة ستة أسابيع

حتى ذلك الحين كان تفكير عبدالناصر قد بدأ فى التأثر اذ لاحظ الأطباء وجود تلف فى بعض أجزاء المخ، كما بدأ الدكتور المفتى آنذاك يرى بوادر صرع كما رأى معظم المتخصصين أن مريضا فى مثل

حـالتـه يعانـى من أزمات قلبيـة متكـررة وتصلب شرايين ومشـاكل متعلقة بالكوليسـترول والسكر أصبح معرضا لتلف بعض مراكز المخ ينتج عنه هبوط فى الدورة الدموية فى المخ فى مثل هذه الحالة الصحية المتردية فإن أى أزمة قلبية بسيطة قد تـؤدى للوفاة. وقد حدث فى يوم ٢٧ سـبتمبر من عـام ١٩٧٠ أن سجل رسـام القلب الكهربـائى أزمـة قلبية ولجأ الأطباء وقتها ـــ فى محاولات مستميتة منهم ـ إلى استخدام الصدمات الكهـربائية لاعادة قلبه للحيـاة وعندما فشل ذلك لجأوا إلى التنفس الصنـاعى إلا أن كل هـذه المحاولات لم تكن لتنقـذ الـرئيس الذى رحل فى ذلك اليوم

أود أن أجـذب الانتباه هنـا إلى واقعة مأسـاويـة حدثت فى الآونـة الأخيرة، وهى حـرب الخليج الثـانيـة. فهـذه الكـارثـة كـان وراءهـا ديكتاتور غير متزن ذهنيا استطـاع أن يتحدى العالم كله كما استطاع أن يجمع حوله الـراى العام فى بلده وفى عدة بلاد اخرى وهـدا يذكرنا بالهيسـتريا الجماعية التى ساندت عبـدالناصر عندما أراد التنحى عام ١٩٦٧. فبعـد أن تسبب فى واحـدة من اسـوأ الهزائم فى تـاريخ مصر والتى كلفتهـا الكثير وبعـد أن تسبب فى جعل الاسرائيليين يحتلـو ن الضفـة الشرقيـة من الفنـاة سارت الجماهير المصريـة فى مظـاهـرات جماعية تدفعها العاطفة العمياء لكى تستعيده للسلطة

الشـىء الغريب فيما يتعلق بالحالة الـذهنية والصحية لعبدالناصر انه كان قادرا فى مثل حـالته على استدرار حماس الجماهير وتعاطفهم هذا ما كان يميز شخصيات الكثير من الطغاة مثل هتلر.

هل من الممكن الآن ونحن نملك أدوات البحث والمعرفـة الحديثة أن نجد وسيلة ما لدراسة سيكولوجية الجماهير والهيستريا الجماعية؟

إنها مشكلة خطيرة حقـا أن يتحكم فرد يعانى من عـدم الاستقرار النفسى فى مصير شعب تخدعه المظاهـر فمن ضمن أعراض الفصام

أن المريض يمكنه لفترة طويلة أن يتخذ مظهر الاتزان الخارجي والشعور بالمسئولية فلا يلحظ من حوله وجود المرض حتى يظهر على السطح فى لحظة معينة وبشكل يصعب السيطرة عليه

الجدير بالذكر هنا أن الدكتور المفتى تم اغتياله على أيدى رجال جهاز المخابرات الذى كان يراسه فى ذاك الوقت صلاح نصر الذى كان يتسم بالجهل والمرض فضلا عن طاعته العمياء للرئيس. ولم يكن وراء قتل الدكتور المفتى إلا تحذيره الدائم للحكومة المصرية من المخاطر التى يمكن أن يواجهها المجتمع على يد ديكتاتور مريض

لعل الصورة تتضح تماما فى ضوء ما حدث فى الخليج منذ بضعة سنوات. فيجب أن يتضح للجميع الجنون الذى وصل إليه صدام حسين وما كان يمكن أن يسفر عنه هذا الجنون. فلو كان صدام حسين قد انتظر سنتين قبل اعتداءاته على الكويت لكان فى امكانه أن يحرز قوة نووية فى وقت يقوم فيه بالتخلص التدريجى من الأسلحة النووية

يمثل تاريخ عبدالناصر ومشاكله الصحية اسهاما مهما فى تاريخ الشرق الاوسط وتكمن أهمية ذلك هنا فى أن حياة عبدالناصر تقدم لنا مثالا على العلاقة بين الحالة الصحية للحاكم أو السلطة السياسية وقراراته التى تؤثر على مصير شعبه

الجزء الأول

الأيام الأولى

● الفصـــل الأول ●



الأيام الأولى للثورة

لقد كـان يوم السادس والعشرين من يـوليو ١٩٥٢ يـوما عصيبـا.. فقد رحـل الملك ظهر ذلك اليـوم كما تم سـحب الحرس من قصر الأميرة فـايـزة بالاسكنـدريـة. وساد ذلك اليوم جو عـام من الشك وعدم التيقن عما قد تسفر عنـه الأمور. كما امتـلأت شوارع الاسكنـدرية فى ذات اليوم بالـجماهير المؤيـدة للثورة، هذا فضلا عن أن

البعض قد حاول مهاجمة القصر ولكن الحرس الملكى صد هذه الهجمات، والجدير بالذكر أن الملك شخصيا أصدر أوامره للحرس بألا يطلقوا النار لأنه لا يجب لمصريين أن يطلقوا النار على مصريين. وفى تلك الليلة قررنا أنا وزوجتى أن نكون مع الأميرة فايزة وزوجها «بولنت» فى حالة حدوث أية متاعب. وفى ذلك اليوم لم يكن عمر الثورة أكثر من ثلاثة أيام كما أن هوية من قاموا بها لم تكن معروفة تماما.

لقد رحل فاروق دون مقاومة تذكر؛ ولو كان قد اتخذ قراره بالبقاء والمقاومة لعله قد انتصر فى ذلك اليوم، ففى تلك الآونة كان لم يزل يحتفظ بولاء قوات من البحرية والحربية ليست بالقليلة. إلا أن فاروق اكتشف بعد ذلك وجود خيانة على كل مستوى؛ فالقائد العام حسين باشا خدعه بأن أوعز له بولاء جميع ضباطه؛ هذا علاوة على أن جميع الوزراء كانوا موالين تماما لطموحاتهم الخاصة، وكان عندما يحدث تعارض بين ولائهم لطموحاتهم وولائهم للملك كانوا يختارون دون تردد مصلحتهم الشخصية. بالاضافة إلى هؤلاء فقد عمل مسئول قصره جاهدا على عزله عن شعبه وعن جيشه؛ كما أن العملاء الأمريكيين كانوا يدبرون العديد من المؤامرات ضده . كما قامت وسائل الاعلام الدولية آنذاك بشن هجمات ضارية على شخصية الملك لتيقنهم بتأييده للفلسطينيين ضد اسرائيل.

أود أن أذكر هنا بأن القوات التى أظهرت ولاءها للملك كانت قوية بدرجة كافية. فقد كان بالاسكندرية الآلاف من الجنود تحت قيادة العديد من الضباط الموالين للملك. كما كان بحوزة البحرية مدافع ثقيلة بقطر ٤,٧ بوصة تعضدها مدافع أخرى بقطر ٦ بوصات وهو ما قد يفوق ما كان بحوزة قادة الثورة آنذاك. وبدلا من اللجوء لسفك الدماء وما يترتب عليه ذلك من مذابح وحرب أهلية تعطى فرصة للتدخل الأجنبى وجد فاروق أنه من الأشرف له أن يرحل.

إلا أن رحيلـه خلّف وراءه شعورا بعـدم الأمـان لدى المقـربين من الملك والـذين أظهروا ولاءهـم له. من بين هـؤلاء كـانت الأميرة فايـزة شقيقة فاروق؛ فعلاوة على جمالها الشديـد الذى كان مثارا للكثير من الشائعـات والحكايات فقد كـانت تتمتع أيضا بشخصية قـوية؛ فعلى الرغم مـن ولائها الشديـد لأخيها إلا أنـه كان من المعـروف عنها أنها كانـت دائما على استعداد للوقـوف ضده اذا مـا استدعى الأمـر ذلك. وكانت تلك الشخصية القوية كفيلة بأن تجعل للأميرة فايزة ملفا لدى المخابـرات العسكريـة باعتبـارها شخصيـة سياسيـة مؤثـرة يجب مراقبتها وسنعـود فيما بعد لما حدث للأميرة فايـزة وعلاقتها بمجلس قيادة الثورة.

وبعـد هـــذا اليـوم العصيب مـرت الليلـة بشكـل طبيعى ولكنهـا لم تكشف لنا عما يخبئه المستقبل.

لم تأت الأيام القليلـة التالية بحدث ذى أهميـة كبيرة. فمصر كانت لم تزل ملكيـة، كما رحل الملك الجديد أحمد فـؤاد ـ الذى كـان لايزال رضيعا ـــ مع والده إلى المنفى تاركـا وراءه مجلس وصاية مكـونا من الأمير عبدالمنعـم ابن الخديو عبـاس حلمى الثانى، وعلى مـاهر بـاشا ورشاد مهنا وهو أحد أعضاء مجموعة الضباط الذين قاموا بالثورة.

وهكذا أصبحت البلاد تحت الحكم الاسمـى للواء محمد نجيب مع الاحتفاظ بعلى ماهـر باشا رئيسا للوزراء. والجدير بـالذكر أن جمال عبدالنـاصر القائد الفعلى للثـورة قـد فضل أن يبقى مجهـولا فى تلك الآونة.

واذا نظـرنـا لأول تشكيل وزارى بعـد الثورة سنجـد أن الـوزراء جميعا كـانوا ضمن التشكيلات الـوزارية التى توالت فى عهـد فاروق. بل إن اللواء محمـد نجيب نفسه كان الملك قد اقترح بأن يكـون وزيرا للـدفـاع وذلك فى أواخـر حكمه. من هنـا يبـدو لنـا أ ن تغييرا كبيرا لم

يحدث فى مصر. وباستخدام كلمات محمد نجيب نفسه لم تحدث ثورة، فقد قال نجيب: «أود أن أؤكد للجميع أنه لم يحدث انقلاب حاد فى اسلوب الحكم فى مصر. فكل ما نسعى إليه هو الحفاظ على الدستور كما هو؛ فنحن لسنا معنيين بتعديله علما بأن تعديل الدستور يُعد مهمة سياسية هى من محض اختصاص الحكومة. نحن مسئولون فقط عن تطهير القوات المسلحة وليس لنا أن نتدخل أو حتى أن نبدى اقتراحا فيما يتعلق بالأمور السياسية...».

من الأهمية بمكان أن نلحظ بعين الاعتبار التطور الذى كان يبدو فى الأفق؛ فقد كان من الواضح بدء ظهور انقسام فى الاتجاهات والآراء. فبالنسبة لعلى ماهر ونجيب والوزراء فقد شكلوا اتجاها واحدا؛ ويمكن القول بأنهم جميعا كانوا ينتمون لطبقة الحكام التقليديين الذين ظهروا فى مصر فى ظل الملكية؛ فعلى ماهر كان أكثر رجال فاروق تمتعا بثقته، وكان فاروق دائما يتلقى منه النصيحة والمشورة. ومن المعروف أن الانجليز كانوا يحاولون دائما الضغط على فاروق لعزل على ماهر وذلك فى أيامه الأولى. وإن كان هناك من يدان له بالفضل فى تشكيل الاتجاهات الوطنية عند فاروق فهو على ماهر. وهذه المجموعة (على ماهر والوزراء) تؤيد وجهة نظرى بأن أول وزارة بعد الثورة لم تكن إلا امتدادا لعهد فاروق. فوجهات النظر فيما يتعلق بالحرب مع اسرائيل، وطرد القوات البريطانية من مصر، والشئون الاقتصادية والسياسية كانت لا تختلف على الاطلاق عما كانت عليه أيام الملك. وعلى الجانب الآخر كان لجمال عبدالناصر وضباط مجلس قيادة الثورة آراء واتجاهات أخرى. إلا أن هذه الاتجاهات لم تشكل نسقا فكريا متسقا فيما بينها، فقد تراوحت هذه الاتجاهات بين الأفكار الماركسية لخالد محيى الدين ويوسف صدّيق،

والاشتراكيــة الغامضـــة وغير الواضحــة لـدى جمال سالم، والميـول الاسلامية لدى عبدالمنعم عبدالـرءوف، هذا فضلا عن مجموعة أخرى من الضباط ليس لديهم اتجاه سياسى واضح.

لقد تحقق عبدالناصر ـ باعتبـاره العقل المدبر وراء الثورة ـ أنه إن قُـدر لهذا «الانقــلاب» أن يستمــر فعليــه أن ينظم صفـوفـه ويطـرح سياسات جديدة على الـرأى العام الذى لم يكن يزل يعيش فى الماضى القريب.

وبــالاضــافــة إلى ذلك فقـد كان على عبـدالنــاصر أن يُظهـر ولاءه للأمريكيين. فالثورة كانت بحــاجة إلى التأييد الاقتصادى والسياسى من قوة عظمى مثل أمــريكا لاسيما أن الانجليز كانوا لايـزالون داخل البــلاد بحكم وجودهم المتميـز فى قناة الســويس. فى ذات الوقت كــان نجيب وعلى مــاهر يمثــلان الاتجاه القومى المحــافظ المناهض للنفـوذ الأمريكى هــذا فضلا عن عدم ارتباطهما الايـديولوجى برجـال الثورة وكانا لايـزالان يؤيدان البواعث التى أدت إلى كارثة حــريق القاهرة فى شتــاء ١٩٥١/١٩٥٢. ومن هنــا تيقن عبـدالناصر ورجــالــه أنــه اذا استمرت مصر تحركهــا اتجاهات وأفكار هؤلاء التقليـديين فإن الثورة ستفشل دون شك كما سترتد البــلاد إلى عهد فــاروق البائد. كما رأى عبدالنــاصر أيضا ورأى معه أصــدقاؤه الأمــريكيون أن نجيب أصبح يمثل رئيسـا صوريا ولكن فى ذات الــوقت يمكن أن يقوم من خلاله على مــاهر والبــاشوات القــدامى بتنظيم صفـوفهم للعودة إلى السلطــة فى شكلها القديم. وانتهــى الأمر بعد ذلك باتخاذ قرار بعــزل اللواء نجيب من رئاسة مجلس قيادة الثورة.

نعود الآن للحديث عن الأميرة فايـزة التى كانت قد تكيفت مع واقع الحياة وايقــاعها فى فترة ما بعـد فاروق وعلى الـرغم من ذلك فالأميرة كانت لاتزال تحتفظ بتأثيرها القوى على الآخرين، فكثيرا ما كان يمتلأ

قصر «الزهرية» (التى كانت تسكن فيه) بالأصدقاء والمريدين.

ويقع قصر «الزهرية» بالقرب من نادى الجزيرة الرياضى. وقد كان هذا القصر فيما سبق مقرا للجنرال «ويفيل» القائد العام الانجليزى بالقاهرة، وبنهاية الحرب أخذت فايزة هذا القصر بملحقاته وحدائقه. كما قام زوجها «بولنت» بحسه الفنى بتحويل مقر الفيلد مارشال إلى قصر يتناسب ومقام الأميرة؛ وقد فزع الملك فاروق يوما عندما نمى إلى علمه أن تجهيز هذا القصر تكلف عدة مئات من آلاف الجنيهات. فقد تم استبدال أثاث الجنرال «ويفيل» بالعديد من قطع الأثاث الفاخرة التى تم استيرادها خصيصا من أوروبا؛ فامتزج الأثاث بالذوق الانجليزى والفرنسى؛ كما غطت الحوائط اللوحات الأصلية لأعظم فنانى أوروبا من أمثال «فيلاسكينر» و«كورو» هذا فضلا عن مجموعة من لوحات التأثيريين الفرنسيين. أما حجرة الطعام فقد امتلأت بقطع الفضة الانجليزية جنبا إلى جنب مع القطع الخديوية. كما غطت الموائد مجموعة من أرقى أنواع المفارش التى يقال أن الخديو اسماعيل كان قد أحضرها خصيصا استعدادا لاستقبال الملكة «أوجينى». لقد فاق قصر الزهرية ــ عندما سكنته فايزة ــ أعظم قصور انجلترا. فبالاضافة إلى أثاثه الفاخر أحضرت فايزة طاقما من الخدم النوبيين والسودانيين الذين يتميزون بزيهم الفاخر والمتميز.

أما حدائق القصر فقد امتلأت بالصوبات العديدة التى تتسم بالذوق الفنى؛ كما احتوت الحدائق على مجرى ماء صناعى ينبع من عين ماء صغيرة ويجرى عبر غابة صغيرة. بالاضافة إلى ذلك فقد جمعت فايزة فى حدائقها العديد من الطيور المختلفة والتى جُمعت من كافة بقاع الدنيا مثل الببغاء وطيور الحب و«الككتوه» وغيرها من الطيور العجيبة التى كانت تحدث بأصواتها العذبة جوا رومانسيا

بزراعة العديد من التكعيبات والنباتات الغريبة والنادرة. أما اذا تحدثنا عن «الروف جاردن» الخاص بقصر الزهرية فأبسط ما يقال عنه أنه قطعة فنية جميلة.

كما بنى «بولنت» فى «الروف» حجرة للترفيه كنا نقضى فيها الأمسيات نشاهد فيها أفضل أفلام هوليوود وأوروبا وذلك بعد اغلاق دور السينما لأبوابها. وكثيرا ما يتذكر المرء نشوة ليالى الصيف المقمرة التى كنا نقضيها فى «روف» قصر «الزهرية» ونحن نستمع لمقطوعات «شوبان» والتى كان يؤديها على البيانو الأمير حسن حسن ابن عم الأميرة فايزة، وقد كان عازفا بارعا يملك مهارة لا يجاريه فيها أحد.

أما «بولنت» زوج فايزة فقد كان رجلا غاية فى اللطف. فقد كان ضخما نضرا، ويتمتع بالطابع الأرستقراطى الرصين الذى يميز نبلاء النمسا. كما كان يتعمد أن يحيط نفسه بطابع الحذلقة الادواردية هذا فضلا عن ذكاء غامض وجذاب فى ذات الوقت يذكرنا بأوسكار وايلد. فضلا عن ذلك فقد كان يملك عقلا حاذقا جنبا إلى جنب مع درجة عالية من الانسانية. لقد كان بولنت حفيدا لابنة الخديو اسماعيل التى كانت تتمتع بحب والدها وهى الأميرة «فاطيما» وقد كانت امرأة غاية فى الثراء تركت وراءها ثروة هائلة للحكومة المصرية من بينها قصر كبير هو الآن وزارة الزراعة. وقد كان ابناها (أعمام «بولنت») جمال الدين وجلال الدين صديقين شخصيين لوالدى.

نعود إلى «بولنت» الذى كان فضلا عن طباعه الأوروبية يتصف بذلك العناد العثمانى، كما كان يكن تقديرا كبيرا للقرآن. وكان «بولنت» كريما لأقصى درجة فقد كان ينفق ببذخ واسراف شديدين وذلك على النقيض من نسيبه الملك فاروق الذى كان شحيح اليدين إلى حد ما.

بعد قيام الثورة تفرغ «بولنت» لابعاد نفسه وزوجته عن مناخ

الثـورة؛ كما اهتم بتهـريب الكثير من ممتلكـاتـه ومجوهرات فـايـزة ونقودهـا، وقد ساعده فى هـذه المهمة العديد من الأصـدقاء من بينهم سفراء وضباط بادارة الجمارك.

إلا أن فرصة هائلة قد أتيحت لبولنت لتحقيق أهدافه؛ ولم تكن هذه الفـرصة إلا تعـرف بـولنت على واحد من أكثـر معـاونى عبدالنـاصر «كارزما» وعاطفية وهو المقدم صـلاح سالم والذى سرعان ما اشتهر بعـد ذلك بلقب «المقدم الـراقص» لقد كـان صلاح سـالم هو وأخـوه جمال سـالم من أبرز أعضـاء مجلس قيادة الثـورة؛ وكانـا من أسرة ثـريـة تملك الكثير من الأراضى والعقـارات. وكـان صـلاح يتسم بـالعاطفيـة والرومـانسية وعـدم الاستقرار. ومثلـه مثل العديـد من الرجال الـذين أتوا إلى قصر الزهريـة فقد وقع صلاح فى غـرام الفاتنة فايزة.

وسرعـان مـا أدرك «بولنت» أهميـة العـلاقـة بين فايـزة وصـلاح بالنسبة لخططه. فكان يقوم بتشجيع هذه العلاقة. وسرعان ما أصبح صلاح زائرا يوميا لقصر الزهرية. ففى الصباح كان يحضر اجتماعات مجلس قيادة الثـورة، وفى المساء كان يختلـط بأفراد عائلات القـاهرة الأرستقراطية الذين جاءوا لزيارة سمو الأميرة؛ كما أن حضور صلاح ووجوده فى القصر كان يمثـل مصدر جذب لهذه العائلات، فقـد كانوا يحملقون فيه كما لـو كان قادما من الفضـاء الخارجى؛ وكان مشهدا غـريبا أن تـرى واحـدا من حكـام مصر الجدد وهو يختلـط بالطبقـة الحاكمة القديمة.

وبمعـاونـة العـديـد من الأصـدقـاء تمكن بـولنت من تهريب كل مجوهـرات فايـزة إلى أوروبا، كـذلك قـام بتهريب لـوحات «كـورو» وفـلاسكينر ولـوحات التأثيريين الفـرنسيين هذا فضـلا عن الملابس والمعاطف الثمينة.

وعندما علم الرئيس عبدالناصر بمـوضوع قصر الزهرية بدأ ينظر

وعندما علم الرئيس عبدالناصر بموضوع قصر الزهرية بدأ ينظر بعين الشك إلى صلاح سالم. كما شك فى أن يكون للأميرة فوزية مآرب سياسية. وهنا دفعته بدايات البارانويا لأن يشك فى الناس وابتدأت الشكوك تتزايد لدى عبدالناصر عندما علم أن اللواء محمد نجيب نفسه قام بزيارة لقصر الزهرية وهو أيضا بدوره قد افتتن بالأميرة. وكان هذا كثيرا على عبدالناصر. كما نشرت الصحف وقتها مقالا يوجه لوما غير مباشر للمقدم صلاح سالم. كما نشرت صورة للأميرة على صفحة كبيرة وكتبت تحتها العبارة «أيا رجال الثورة احترسوا من مثل هذه»

ولم يكن من الصعب آنذاك على عبدالناصر أن يقتنع بأن هناك تهديدا لحكمه، فمصر كانت لاتزال ملكية كما كانت شعبية نجيب تثير شكوكه كذلك كان هناك خطر آخر يكمن فى على ماهر ووزرائه المحافظين فضلاً عن ذلك كله فقد كانت العائلة المالكة بمن فيها من أمراء ونبلاء تملك ثروات وأملاكا كبيرة. ومن هنا بدأ قرار اعلان النظام الجمهورى يتشكل فى ذهن الرئيس

إلا أن الأميرة فايزة كانت قد وجدت طريقها إلى خارج مصر ومعها ممتلكاتها الثمينة وبعد سفرها بثلاثة شهور أعلنت الجمهورية وما صاحبها من قرارات نزع الملكية عن العائلة الملكية. وهكذا تم الاستيلاء على «قصر الزهرية» وبيع ما تبقى بداخله بما فى ذلك ملابس «فايزة» فى المزاد العلنى ويُعد ذلك مثالا للروح الانتقامية لدى عبدالناصر فيما يتعلق بأولئك الذين يثيرون شكوكه.

● الفصل الثـانى ●



شكوك حول الناصرية

عنـدما تنـازل الملك عن العـرش كنت أشغل وقتهـا رسميـا منصب رئيس قسم الاستعـلامـات الخارجيـة بالمكتب الصحفى للجامعـة العربية. وكان عملى ينحصر بـدرجـة كبيرة فى كـونـى حلقـة الـوصل بين المراسلين الأجـانب والسكرتير العـام عزام بـاشـا، كما كنت أحـد أعضــاء المكتب الخاص بـالسكرتير العـام، وكنت أيضـا

حلقة الوصل المباشرة والشخصية بين الملك فاروق وعزام باشا وذلك بصفة غير رسمية.

لقد كنا نعمل بشكل وثيق مع وزارة الشئون الخارجية التى كانت علاقتنا بها تقوم على التعاون على كل المستويات

لقد التحقت بسكرتارية الجامعة العربية عام ١٩٤٦ وذلك عندما كانت لاتزال فى بدايتها الأولى كهيئة داخل وزارة الشئون الخارجية.

كانت الجامعة العربية فى ذلك الوقت عنصرا فعالا فى تشكيل السياسة المصرية الخارجية كان عزام باشا يحلم من خلال الجامعة العربية باعادة تكوين واحياء المملكة العثمانية وقد رأى فى ملكية فاروق وسيلة لتحقيق ذلك.

وكان عزام باشا ومن معه يوجهون نشاطهم السياسى ـ ضمن ما كانوا يوجهونه ـ نحو بريطانيا. لقد شعر عزام باشا بأن الامبراطورية البريطانية أصبحت فى طريقها إلى الانحلال وذلك بعد الحرب المضنية التى اجتازتها، ومن ثم لم يعد لدى بريطانيا الدافع الاقتصادى أو السياسى لأن تجلب لنفسها عبئا آخر وهو زعامة العرب. وكان أنطونى إيدن فى ذلك الوقت يحاول جاهدا خلق بدائل عديدة تخدم المصالح البريطانية من الناحية الاقتصادية.

ومن بين هذه البدائل كانت الجامعة العربية التى رأى فيها الانجليز وسيلة لتحقيق مآربهم وقد عبر عن ذلك إيدن عندما أعلن تعاطف بريطانيا مع تأسيس الجامعة. لقد كان الانجليز يرون فى الجامعة العربية بداية تكوين كيان عالمى اقليمى يخدم مصالح العرب والانجليز فى ذات الوقت. إلا أن «إيدن» لم يكن ليتخيل أن العرب يمكن أن يستخدموا هذا الكيان الجديد ضد المصالح البريطانية وهذا ما حدث بالفعل بعد ذلك، فبعد توقيع بروتوكول تأسيس الجامعة العربية فى الاسكندرية فى ٧ أكتوبر عام ١٩٤٤ قام فاروق بعزل

الـوزارة الوفـديـة التى كانت تحظى قبـول وتأييـد الانجليز. وهكـذا أصبح عـزام بـاشـا أول سكـرتير عـام للجـامعـة التى بدأت تـوجـه اهتمامها ضد مصالح انجلترا.

تميـزت المرحلـة الأولى من النشـاط السيـاسـى داخل الجامعـة بمحاولة تكـوين أغلبية قوية من الدول تسير فى اتجاه سياسـة قومية واصلاحيـة، وباعتبارها شريكـا فى هذه السياسـة لم تجد مصر شيئا يمكن عملـه فى هـذا الشـأن أفضل من التحـالف مع المملكـة العـربيـة السعودية؛ فـالتحالف بين القاهرة والريـاض يمثل تحالفا بين كيانين عربيين قـويين أحدهما وهى مصر تعتبر الدولـة الحضرية التى تتمتع بثقل سياسى عالميا واقليميا، والأخـرى ـ وهى السعودية ـ تعتبر أكبر الدول الرائدة فى انتاج البترول.

فى تلك الآونـة انتهت فى الريـاض حقبة نفوذ «فيلبـى» بما تنطوى عليـه من نفوذ انجليـزى وحلت محلهـا حقبة «آرامكـو». كما سنحت أيضا فـرصة تكـوين «لوبى» قوى ضـد بريطـانيا وذلك فى واشنطن. وجديـر بالـذكر هنـا أن المصالح البتروليـة الخاصة بكل من أمـريكا وبريطانيا كانت على طرفى نقيض.

كما زاد من قرب العرب لأمريكا فى ذلك الـوقت المعاملات الأمريكية المرنـة والتى كانت تترك دائما مسـاحـة للحوار فيما يتعلق بصفقـات البترول وذلك على العكس من المعاملات الانجليـزية التى كانت تتسم دائما بضيق الأفق.

وتبعا لذلك كله ضعف النفوذ البريطانى فى تلك المنطقة، وأخذ يحل محله بالتـدريج النفوذ الأمريكى. كما ترتب على ذلـك أيضا أن اللوبى السعودى الذى تكون فى واشنطن والذى كان يحظى بتأييد الكولونيل «ويليام ادى» سفير الولايات المتحدة فى الرياض أصبح فى موقع يمكنه منه أن يسـاند الجامعـة العربية ويقـوى من موقفهـا أمام الحكـومة

الأمريكية. بالاضافة إلى ذلك فإنه يمكن لمصر أن تتلقى المساعدة من السعودية فيما يتعلق بتوسيع الفجوة بين وجهات النظر الأمريكية والانجليزية فيما يتعلق بالمسألة المصرية

هذا كان باختصار وضع السياسة الخارجية فى الفترة الأخيرة من حكم فاروق وأود هنا أن أشير إلى بعض الحقائق لكى تكتمل الصورة لدى القارىء؛ فالملك فاروق على الرغم من أنه لم يكن ذا دور فعال فيما يتعلق بالدبلوماسية المصرية إلا أننا يجب أن نشير إلى أنه كان يفتقر تماما إلى الخبرة والكفاءة اللازمة لرسم سياسات معقدة تتطلب معرفة وثيقة بتاريخ المنطقة وسياساتها وأبرز القادة فيها. كما كان يفتقر إلى الخبرة الشخصية التى كان يتميز بها القادة الدوليون. لقد كان فاروق فعلا ليس أكثر من مجرد شريك لعزام باشا وعلى ماهر اللذين كانا ــ دون شك ـ هما القادة الفعليون ومخططو السياسة الخارجية. وهنا تبدو المفارقة الغريبة فى أن الكثير من الكبوات السياسية كانت تُغرى الملك فاروق بتشكيل متعسف وغير عادل، بينما استمر المسئولون الحقيقيون عن هذه الكبوات فى السلطة بعد تنازله عن العرش.

وهكذا نرى أن العلاقة مع واشنطن كانت تسير فى اتجاه ايجابى للغاية قبل الثورة. ويستشعر المرء أن صانعى القرار السياسى الأمريكى كانوا على وعى تام بالثقل الحقيقى لمصر؛ كما كان يهمهم بالدرجة الأولى علاقة مصر الوثيقة بالسعودية، ولذلك ليس من المستغرب أن أمريكا كانت كثيرا ما توجه النقد للسياسة البريطانية فى الشرق الأوسط باعتبارها سياسة بالية ومتعسفة.

بعد الثورة وبقاء عزام باشا فى منصبه كسكرتير عام للجامعة استمر فى تطبيق سياساته الخارجية التى وصفت فيما بعد بأنها سياسات فاروق الخاصة. وقد لوحظ على السياسة الخارجية للنظام

الجديد أنها كانت تتعجل حل مشكلتى كل من مصر وفلسطين، ونتيجة لهذا التعجل أصبح فى الامكان قبول تسويات كانت قد رفضت فيما سبق.

وكنت فى تلك الفترة قد تعرفت على المرحوم الدكتور حسن أبو السعود الذى كان يشغل منصب النائب المصرى لسكرتير عام الجامعة العربية وكذلك أخوه محمود الذى كان يعمل رئيسا للقسم الاقتصادى للجامعة. وكان الدكتور حسن قد استدعى بعد ذلك للمشاركة فى تشكيل وزارة الارشاد القومى والتى عين فيها صلاح سالم وزيرا وكان أكثر المقربين من عبدالناصر. ولم يكن من المستغرب أن أتلقى دعوة بعد ذلك للانضمام إلى هذه الوزارة لأتولى مسئولية قسم الاستعلامات.

والآن وجدت نفسى أمام قرار شخصى صعب. هل أقبل العمل مع هؤلاء الحكام الجدد الذين تآمروا على مليكى واستبعدوه؟ أم علىّ أن أضع اعتباراتى الشخصية جانبا وأتعاون معهم فى سبيل الدفع بالسياسة المصرية للأمام. وقد أشركت عزام باشا معى فى محاولة ايجاد اجابة لهذا السؤال؛ وهنا قال لى عزام باشا: «يبدو لى هؤلاء الشبان أنهم وطنيون حقا، وقد يسهمون فى تحقيق أهدافنا القومية بتأييدهم الشديد الذى كنا نفتقر إليه فى آخر أيام الملك، ولذا أرى أن قطع الحوار معهم ومعاداتهم قد يكون قصر نظر منا.. فالاستمرارية والاستقرار هما هدفان لهما الأولوية خصوصا فى المجتمعات التى تحدث فيها انقلابات. ولذلك فنصيحتى لك أن تعمل معهم باخلاص حتى يثبت عدم أحقيتهم بعملك معهم.

إلا أن كلام عزام باشا جعلنى فى مواجهة سؤال آخر. هل يمكن اعتبار هؤلاء الثوريين الجدد جزءا من تيار سياسى مصرى أصيل؟ ومن ثم يستحق الاستمرارية أم أنهم يمثلون ظاهرة غريبة على

المجتمع وتشذ عن تطوره السياسى الطبيعى. هل يمكن اعتبارهم عنصرا مقبولا فى التسلسل الأنثربولوجى للحكام المصريين؟

ولغياب أى عمل جاد يتناول أنثروبولوجيا الطبقة الحاكمة المصرية أقدم لقرائى هنا تناولا تاريخيا مختصرا أحاول فيه توصيف بنية وشكل واستمرارية النخبة الحاكمة المصرية.

● الفصل الثالث ●



البحث عن أجداد الفنان

حاولت شخصيات مصرية بارزة ـ بما فى ذلك الرئيس السادات نفسه ـ تقديم توصيف للهوية المصرية؛ فتعددت التعريفات وتباينت، إلا أن الاتجاه الذى ساد من بين هذه التعريفات هو ما يمكن أن نسميه «الاتجاه البيرانديللى»[1] الذى كان يتبناه الرئيس عبدالناصر والذى كان يرى أن المصريين يؤدون دورا

(١) نسبة إلى الكاتب المسرحى الايطالى «لويجى بيرانديللو» (١٨٦٧ ـ ١٩٣٦).

بطوليا كبيرا فى المنطقة، ومن بين ما قاله فى هذا الشأن: «لن أنسى ما حييت قصة للكاتب الايطالى العظيم «لويجى بيرانديللو» بعنوان «ستة شخصيات تبحث عن مؤلف» تمتلىء حقب التاريخ بأبطال خلقوا لأنفسهم أدوارا بطولية عظيمة أدوها بأكمل وجه على مسرح التاريخ».

«... تمتلىء حقب التاريخ أيضا بأدوار عظيمة لم تجد بعد أبطالا قادرين على أدائها، ولا أدرى لماذا يبدو لى أنه يوجد بهذه المنطقة التى نعيش فيها دور ينتظر له بطلا.. وها نحن قد أبدينا تجاوبنا مع هذا الدور»(١)

المعنى المقصود هنا هو أن مصر فى عهدها الناصرى الثورى كانت على وشك أن تلعب دورا كبيرا فيما يتعلق بمصير ومستقبل العالم العربى والاسلامى. ومن ثم فقد سادت وانتشرت فى ذلك الوقت فكرة أن مصر أصبحت على أعقاب مصير جديد يتسم بالانجازات الجديدة، وذلك بعد أن أصبحت مصر - لأول مرة فى تاريخها - منذ الفراعنة تحت زعامة رئيس من أبنائها، وذلك بعد نهاية حكم فاروق وما يمثله من وجود أجنبى. وفى تلك الآونة كتب الدكتور حسين فوزى (وهو أحد المؤرخين المصريين البارزين وقد أصبح فيما بعد رئيسا لجامعة الاسكندرية) كتابه «السندباد المصرى» الذى كان يُعد بمثابة «الكتاب المقدس» للفكر الناصرى الجديد. وأقل ما يقال فى الأطروحة الأساسية للدكتور فوزى أنها تتسم بالتبسيط الشديد. يعقد الدكتور فوزى مقارنة بين الشعب المصرى والرحالة العربى «سندباد»، ويأخذنا مع هذا الشعب فى رحلة طويلة عبر التاريخ ذاق فيها المصريون ألوان الهوان والاحتلال والاستغلال من جانب مجموعات الأجانب المستغلين بداية من جيوش قمبيز مرورا بالمماليك وما عُرف عنهم من سلب ونهب، وانتهاء بمحمد على وذريته. هذا فضلا عن الغزوات

---

(١) «فلسفة الثورة». جمال عبدالناصر.

الأوروبية كالحملة الفرنسية بقيادة نابليون ثم الاحتلال الانجليزى فى نهايات القرن التاسع عشر. ولكن فى النهاية كُتب لمصر أن تطرد كل هؤلاء المستعمرين والمستغلين وذلك على يد ابنها جمال عبدالناصر الذى يعد أول مصرى منذ عهد الفراعنة يحكم مصر. وبمرور السنين تضخمت هذه الفكرة وتم الاضافة إليها والتركيز عليها. كما تمت صياغة ذات الفكرة من خلال عرض مسرحى مبهر (يشبه عرض «الموكب»[1] الانجليزى) قدمه فى أواخر الستينيات رجل مسرح متمكن هو زكى طليمات، وكان اسم العرض «موال من مصر».

يبدأ العرض بحوار بين أبى الهول وشخصية أخرى تمثل الشعب المصرى. وتظهر هذه الشخصية الأخيرة فى شكل رجل فى منتصف العمر يبدو عليه القلق ولكن فى ذات الوقت تظهر على وجهه سيمات الشجاعة، ويرتدى زى القرويين البسطاء وهو «الجلابية». وقد كان تأثير الصوت والضوء كبيرا على عرض «موال من مصر»، فقد كنا حقا أمام عرض يتسم بالابهار الشديد. وقد شاهدنا فى ذلك العرض أسطورة ايزيس تلك القصة الحالمة والتراجيديا فى ذات الوقت ثم تلا ذلك سلسلة من عروض الباليه والموسيقى التى تصور التاريخ المصرى. ثم رأينا مشهدا عن المماليك بغبائهم واستغلالهم، تلاه رقصة للباشوات بطرابيشهم المميزة. أما المشهد الأخير فكان عبارة عن «تابلوه» يظهر هجوم عبدالناصر والجيش على قصر فاروق، وقد امتلأ هذا المشهد عن آخره بالأعلام المرفرفة، وفرق الموسيقى العسكرية وهى تعزف المقطوعات الحماسية كما ظهر أيضا الجنود والدبابات فى هذا المشهد.

إن كان هذا كله محركا للعواطف إلا أنه كان يفتقر إلى الاقناع

(١) عرض كتبه الكاتب المسرحى الانجليزى « نويل كوارد » عام ١٩٣١ وهو عرض يعتمد على الإبهار البصرى.

والدقة. لقد كان عبدالناصر فى رأيى ــ بجذوره الكردية ــ ينتمى هو وزملاؤه من الضباط الأحرار إلى تلك الطبقة التى عُرفت فى المجتمع المصرى بطبقة أولاد الناس، وهى ذات الطبقة التى انتمى إليها الملك السابق فاروق وعائلته والتى انتمت إليها النخبة الحاكمة فى مصر والتى حكمتها على امتداد أربعمائة سنة مضت.

هنا يكمن مغزى الاشارة إلى «بيرانديللو» الذى كان يرسم لنا شخصيات تسعى إلى هوية وهمية، وتقوم بتحويل واقعها الفقير والمجدب إلى شىء بطولى وطموح. يصف لنا شاهد عيان حالة عبدالناصر قبل الثورة بقوله:

«لقد كان عبدالناصر ينتظر ـ برفقة زملائه الضباط ـ لحظة اتخاذ خطوات فعلية؛ وكانوا جميعا فى حالة مزاجية خاصة فى تلك الليلة. لقد كان عبدالناصر شغوفا بالموسيقى وكان يستمع وقتها إلى سيمفونية «شهرزاد» لكورساكوف، وكان مسترخيا ويدخن سيجارة يطلق مع دخانها نظرات بعيدة مستغرقة فى ذلك الجو الشرقى المؤثر والخلاب الذى توحى به موسيقى كورساكوف. وكانت الليلة مقمرة ودافئة، إلا أنها ان كانت تعطى انطباعا بالاسترخاء والسكينة فقد كان يتسرب إليها بعض التوتر، لقد كان الجو عموما يساعد على التحليق فى أجواء الحلم وبلورة الأهداف. لقد كان الجو موحيا بالنسبة لشاب على أعتاب اتخاذ قرارات خطيرة لقد كنا جميعا فى حالة تركيز وفى انتظار أوامر القائد». وهنا يتساءل المرء متعجبا هل كان لمحمد على مشاعر شبيهة بذلك ليلة مذبحة القلعة؟ بالطبع لم يكن لديه جهاز تسجيل يمده بألحان «قوقازية» لمؤلف موسيقى روسى. لكنه كان على الأرجح فى نفس الحالة المزاجية، وقد تكون هى ذات الحالة المزاجية التى كان فيها محمد الفاتح قبل دخوله استانبول.

لعل ذلك يشير إلى سمة غالبة وغريبة فى الشخصية الشرقية، وهى

أنها تجمع فى نفس الوقت بين الشغف بالشعر والموسيقى جنبا إلى جنب مع الوحشية والغضب العاطفى الثائر. هذه الحالة الذهنية تجدها فى الطغاة الذين مع شغفهم بالشعر مثلا إلا أنهم لا يترددون فى القيام بإبادة جماعية. لقد كان «تيمور لنك» «عاشقا» للزهور وتغريد الطيور؛ وكان هو أيضا الذى قام بحملة لغزو الصين وهو على مشارف الثمانين، إلا أنه مات فى طريقه إلى الصين لحسن حظ اثنى عشر مليون صينى. وسبب حملة «تيمور لنك» على الصين أنه كان قد قام بمذابح أدت إلى القضاء على اثنى عشر مليون مسلم فى حياته، وعندما رأى نهايته تقترب رأى أنه لكى يكفر عن ذنوبه عليه أن يتخلص من عدد مساو من الكفار، وقد كانت الصين فى ذلك الوقت هى التى يمكن أن تفى بهذا العدد المطلوب من الجثث!

لقد كانت الثورة المباركة - كما يحب أن يطلق عليها الضباط المصريون - شبيهة إلى حد كبير وغريب بتلك الانقلابات التى شهدتها القاهرة على مر العصور. لم يكن التمرد على فاروق ثورة بالشكل الذى نعرفه عن الثورات الأوروبية المعروفة التى قامت فى القرن التاسع عشر. ولكى يتسنى لنا فهم ذلك علينا أن نرجع إلى التاريخ لنفحص بأكثر تدقيق مجتمع القاهرة الذى شهد العديد من أجيال المماليك وعائلاتهم والذين خرجت منهم تلك الطبقة الحاكمة المصرية التى عُرفت بمرور الزمن باسم «أولاد الناس».

يفتقر الشخص المصرى العادى — فى رأيى — إلى الفهم الحقيقى للتاريخ، وسبب ذلك أنه فُرض عليه تصورات وتفسيرات وتأويلات متحيزة للتاريخ جعلته فى حيرة من أمره كما لم تجعله يعرف من التاريخ إلا التعميمات الفضفاضة وغير الدقيقة والتى لا تؤدى بأى حال من الأحوال إلى فهمه لنفسه. وأود أن أشير هنا إلى كتاب ظهر فى الآونة الأخيرة ونشرته مؤسسة حكومية، هذا الكتاب يخفى العديد من

الأمور والوثائق التاريخية؛ وفضلا عن ذلك فإنه يمكننا القول بأنه لا يوجد عذر لحالة اللاوعى التى أصابت الباحثين والمثقفين الذين من المفروض فيهم أن يضطلعوا بالدراسة الدقيقة للتاريخ المصرى.

تضافرت مجموعة من الظروف والأسباب أدت إلى الوصول إلى هذه الحالة من التشويش فيما يتعلق بدراسة التاريخ بصفة عامة، وفيما يتعلق بدراسة أنثروبولوجيا الطبقة الحاكمة على وجه الخصوص. من بين تلك الظروف ذلك التسلط الشديد الذى ساد تاريخ مصر الحديث والذى حال دون تقديم دراسة أنثروبولوجية كافية للطبقة الحاسمة المصرية. بالاضافة إلى ذلك فإن أولئك الذين يضطلعون بمحاولة تقديم وصف لهوية المصريين المحدثين يفتقرون إلى المعرفة بالوقائع التاريخية الموثقة، بداية من الحكم العثمانى ومرورا بحملة نابليون وانتهاء بالاحتلال الانجليزى وذلك دون تحيز. وقبل ذلك كله لا يمكن أن نتجاهل الاتجاه العاطفى التحزبى الذى سيسود الحياة السياسية المصرية فى الوقت الراهن والذى يقضى على وجهات النظر العقلانية ويخفى الوقائع التاريخية الثابتة.

أعتقد أنه يمكننى القول دون تردد أن افتقارنا إلى دراسة جادة وجامعة عن الطبقة الحاكمة المصرية يجعل فهمنا لمصر وللتاريخ المصرى يشوبه الكثير من عدم الاتساق وعدم الدقة. ويعد هذا الفصل من كتابى اسهاما بسيطا فى ذلك الموضوع. وحيث انى سأطرح فى هذا الفصل وجهة نظرى فى هذا الموضوع؛ وبما أن الكتابة فى مثل هذا الموضوع وابداء الرأى فيه يتطلب شخصية ذات تأهيل معين، أجد لزاما على أن أقدم نفسى لقرائى بشكل مقتضب.

من حيث المظهر الخارجى كثيرا ما يُخطئنى الكثيرون ويظنوننى فرنسيا أو تركيا أو انجليزيا، ولكن من يقترب من شخصيتى ويعرفنى المعرفة الصحيحة سيصل إلى نتيجة مؤداها أن شخصا

مثلى لا يمكن أن تكـون نشأتـه إلا فى القاهـرة الفـاطمية. وقـد نشأت ووجـدت نفسى عضوا فى تلك الطبقـة من المصريين الـذين ألصق بهم اسم «أولاد النـاس»؛ وقـد تشكلت شخصيـة هـذه الطبقـة وميـولها وعـواطفهـا وردود أفعـالها بكل المؤثـرات الاسـلاميـة والحضريـة والقـومية التى تـركت بصماتها على القاهـرة بصفـة عامـة بامتـداد أربعمائة سنة يشـوبها الاضطراب. ووجودى فى هـذه الطبقة سمح لى بالحصـول على معلومات تتجاوز مـا يمكن أن يحصل عليه الشخص العادى من مصـادر المعرفة التقليدية سـواء كانت باللغـة العربية أو بأى لغة أجنبية أخرى.

من هم «أولاد الناس»؟ لكى نحـدد ماهية هذه الطبقـة يلزم أولا أن نفحص التركيبة الاجتماعية والسياسيـة والدينية للمجتمع الاسلامى فى شكله التقليدى.

لا يكتمل فهمنا للتـاريخ الاسلامى إلا فى ضـوء حقيقة ثـابتة وهى عدم سماح الاسـلام بتوارث الحكم؛ فـالاسلام دين مسـاواة يستوى الناس أمـامه، وبالتـالى ليس بالضرورة أن يُورَّث الحكم لأبنـاء الملوك ويُنكر على أبناء غيرهم، هذا فضـلا عن أن المجتمع القبلى الذى يرى فى الحكم القـوى عامـلا جوهـريا فى استقـرار الجماعة يتجـاوز النسب والدم بـالنسبة للحكام؛ وقـد أدى هذا إلى سفك الكثير من الدمـاء بعد وفاة الرسـول (صلى الله عليـه وسلم)، فمن بين الخلفاء الراشدين كان أبوبكر الصديق هو الخليفة الوحيد الذى مات ميتة طبيعية، أما كل من عمر وعثمان وعلى فقـد قُتلوا جميعا وذلك على امتداد ثـلاثين سنة هى مدة خـلافتهم. انقسم المسلمون تبعـا لذلك - وغـالبا بسبب قضـايا تحزبيـة - إلى سُنَّـة وشيعـة، وخـوارج. ويشير هذا العنف إلى حقيقـة مؤداها أن تداول الخلافة لم تنتظمـه عملية منظمة وثابتة؛ على العكس من ذلك كانـت القيادة الاسلاميـة تخضع للتشاور والمفـاهيم القبلية

التى نشأت فى الصحراء والتى كانت ترى أن قدرة الرجل وامتلاكه للقوة كانت كافية جدا لأن تجعل منه قائدا بغض النظر عن شخصيته وسلوكه الشخصى.

وغالبا ما يُستند إلى هذا الشكل من السلطة الذى يرتكز على عامل القوة بالاشارة إلى قصة تولى السلطان العثمانى سليم الأول للخلافة. فبعد توليه الخلافة بطريقته الخاصة استشار حكماء امبراطوريته بخصوص شرعية خلافته فأخبروه أنه مادامت القوة هى العامل الأساسى الذى يُعوَّل عليه فمشكلة الشرعية غير واردة.

والمغزى هنا واضح: القوة لها الأسبقية والأولوية عن الحقوق السياسية، ومن ثم فمن غير المجدى أن يزعم المرء بحقه فى الحكم سواء كان ذلك حقا شرعيا أو توارثيا دون أن يخرج هذا الزعم إلى حيز الوجود من خلال القوة. وعلى النقيض من ذلك فإن أى شخص تتوافر له القوة العسكرية الكافية التى تمكنه من الاستيلاء على السلطة فإنه عندما يستولى عليها لن يجد صعوبة فى اظهار شرعية حصوله على هذه السلطة. وهكذا نجد أن الفقه الاسلامى — الذى طالما اتصف بالعملية والبراجماتية - لم يشغل نفسه بالتفكير فى نظريات مجردة.

ويُعد النظام المملوكى - الذى يمتد أثره إلى الحياة السياسية المعاصرة فى القاهرة - نتاجا لهذا النمط من التفكير.

كان المماليك نخبة عسكرية أجنبية انتزعت الحكم من سلطة أيوبية آخذة فى الضعف. وحيث أن المبدأ الأساسى الذى كان سائدا آنذاك هو انه لا يمكنك أن تثق فى أى شخص وعلى وجه الخصوص أقاربك وأقرانك فإن الولاء الأسرى كان يُنظر إليه بعين الشك. ومن ثم كانت النصيحة الدائمة هى استجلاب مماليك من جنسيات مختلفة ليست لديهم أية ارتباطات تعوق ولاءهم الكامل لسيدهم (الذى كان بدوره مملوكا سابقا) دون الاعتماد على أشخاص ذوى أصل ونسب كبير

وعريق. ومن هنا جاءت تلك القاعدة فى النظام المملوكى والتى تقول: «اذا أردت أن تكون شخصا ذا بال فى النظام المملوكى فعليك فى البداية أن تكون لا شيء» استتبع ذلك وجود مؤسسة حاكمة لا ترتكز على «الاحتكارية الأسرية» وتشجع هؤلاء الأفراد الذين يبدأون حياتهم كمماليك على التطلع إلى مراكز مرموقة فى السلطة.

لقد كان المملوكى العادى يصل إلى القاهرة كمملوك لا يتجاوز سنه التاسعة أو العاشرة؛ وكان يجد نفسه فجأة بعيدا عن أسرته التى تستقر فى القوقاز أو احدى البقاع البعيدة. كانت هذه الصفات ـ من وجهة نظر النظام ـ تضمن أن يكون ولاء هذا المملوك واخلاصه التام لسيده الجديد الذى يدخل بيته على علم منه بأن يوما ما ـ اذا كانت الظروف مواتية ـ سيصبح هو نفسه سيدا وحاكما. وبالفعل كانت تربية هذا المملوك الصغير تضع نصب الأعين أنه ذات يوم سيصبح حاكما.

ومن ثم كان يتعلم كل ما يحتاجه الملوك من قراءة وكتابة وشعر (الذى وإن كان عربيا بالدرجة الأولى إلا أنه كان يتم تشجيع تعلم الفارسية والتركية). كما كان يُطلب منهم اتقان استخدام السلاح والفروسية. لقد كان المماليك يشكلون مجتمعا فروسيا أثرت قوانينه وقواعده بشكل عميق فى ظهور ونشوء الفروسية الغربية وذلك عندما تقابلوا مع فرسان أوروبا فى معارك «أوترمير»[1]. لقد استهجن المماليك آنذاك استخدام البارود والبنادق والتى كانت فى نظرهم «أسلحة تليق بالنساء» ولا تليق بالفروسية الاسلامية النبيلة. وقد أدى بهم ذلك بالطبع إلى الهزيمة فى آخر الأمر[2].

---

(١) وذلك فى الأرض المقدسة أثناء الحروب الصليبية.

(٢) انظر كتاب «المماليك والبارود» لمؤلفه «آيالون» وعنوانه باللغة الانجليزية Ayalon. The Mamelukes& Gunpowder.

عند البلوغ يُمنح العبد الصغير حريته، وفرسه وأسلحته التى ينشأ عليها كما يُمنح لقبا عسكريا أيضا. ويصبح العبد المملوك من تلك اللحظة فارسا يمنح ولاءه لسيده (الذى مر بنفس العملية هو أيضا فى أيامه الأولى). وحيث أن الشجاعة والفروسية والمهارة فى استخدام السلاح كانت قدرات متوقعة من مثل هؤلاء فإنه كان يسمح لهم بالترقى فى الدرجات العسكرية كلما تفوقوا فى هذه المهارات. وقد ينتهى الأمر بالمملوك فى النهاية (وذلك اذا نجا من الحروب والمؤامرات) إلى أن يصبح سلطانا. وقد حدث ذلك مع السلطان قلاوون، والسلطان «بيبرس البندقدارى» الذى هزم المغول، كما حدث مع العديد من سلاطين المماليك.

نأتى الآن إلى نقطة مهمة وهى أن أبناء المماليك لم يكن لهم الحق فى توارث ألقاب آبائهم، كما لم يكن بامكانهم العمل بسهولة فى مجال الفروسية. هناك بالطبع بعض الاستثناءات الطفيفة التى تحدث عندما يكون للسلطان المملوكى قوة سياسية هائلة تجعله يفرض ابنه وارثا له ولعرشه؛ إلا أن هذا لم يكن يحدث على نطاق كبير.

ومن ثم فإن افتقار أبناء المماليك إلى ألقاب النبلاء ومناصب الفرسان، والتقليل من مكانتهم من قبل آبائهم كان يستدعى تعويضهم عن ذلك بهوية أو وضع ما، وهنا ظهر لقب «أولاد الناس»[1]؛ وقد كان لظهور هذا اللقب مغزاه ودلالته بالنسبة لطبقة أبناء المماليك التى لم تعان طبقة أخرى مثلما عانت من القهر السياسى، ففى مصر المملوكية كانت فرص أبناء البكوات فى الترقى والوصول لمناصب كبيرة أقل من فرص العبيد الذين يأتون من جبال القوقاز.

---

(١) استخدم هذا اللقب فى الأصل ليشير إلى أبناء بكوات المماليك وأقرب أقربائهم، ولكنه بمرور الزمن أصبح يشمل درجات قرابة بعيدة مثل أولاد وبنات الأخ والأحفاد، إلخ، ومازال هذا اللقب شائعا ومستخدما حتى يومنا هذا. ويشير اللقب اليوم إلى أصل اجتماعى وسلالى متميز.

إلا أن هذا النظام ـ مع ذلك ـ يمكن وصفه بأنه يساعد على إحداث مساواة اجتماعية من نوع ما، وذلك لأن «أولاد الناس» عندما لم يتمكنوا من الانخراط فى سلك الفروسية اضطروا للبحث عن أعمال ومهن أخرى بين جموع المصريين ومن ثم التحق بعضهم بالأزهر ليصبحوا معلمين وقضاة ورجال فكر، كما عمل بعضهم كمساعدين لحكام المقاطعات الريفية من المماليك. وفى معظم الأحيان كان أولاد المماليك يتزوجون من طبقات الفلاحين وأثرياء التجار الشىء الذى نتج عنه تكوين رباطات قوية بين المواطنين ظهرت أثناء الاحتلال العثمانى، والحملة الفرنسية.

ويجب ملاحظة أنه على الرغم من عدم السماح لطبقة «أولاد الناس» بالانخراط فى سلك الفروسية إلا أن ظروف الحرب المتغيرة سمحت لهم بأن يلعبوا دورا عسكريا" فمع تزايد أهمية المدفعية والاستخدامات العديدة للبارود سُمح لأولاد الناس بالعمل فى المجال الحربى. وهكذا نجد أن سلاح المدفعية فى السنوات الأخيرة للحكم المملوكى كان يتكون أساسا من «أولاد الناس» والعبيد السودانيين وذلك بسبب التأثير المتزايد للبارود الذى بدأ العدو العثمانى فى استخدامه بشدة.

شىء آخر جدير بالاهتمام أظهره زواج «أولاد الناس» من المصريين وهو قدرة المصريين على تمصير واستيعاب وتمثل الأجناس الأخرى، وهى سمة طالما ميزت هذا البلد. فلم يكن الأمر يحتاج أكثر من جيل أو جيلين لتمثل واستيعاب كل جنس أجنبى داخل عموم المصريين الذين يشكلون هم أيضا خليطا من الأجناس المختلفة.

أصبحت طبقة أولاد الناس من خلال هذا التزاوج الوسيط الذى ربط بين عناصر الطبقة الحاكمة المصرية عند قدوم الحملة الفرنسية. وقد وصف أحد المؤرخين المعاصرين ـ وهو ب. هـ. هولت ـ شكل

المجتمع المصرى وبنيته فى ذلك الوقت قائلا: «كانت مصر العثمانية فى القرن الثامن عشر تشكل ـــ رغما عن بعض الصراعات الطفيفة ـ مجتمعا شديد الصلابة تحكمه نخبة عسكرية تعاونها فى ذلك وبشكل ضمنى طبقة العلماء، وذلك فى وجود طبقات التجار والصناع الذين يقومون على مصالح المجتمع وامتيازاته من خلال الطوائف الحرفية، ومن خلال علاقاتهم مع النخبة العسكرية..»[1].

وهكذا منذ بداية الحكم المملوكى، وخصوصا فى الفترة التى أعقبت الاحتلال العثمانى عام ١٥١٦ أخذت طبقة «أولاد الناس» تتزايد كما أصبحت بمرور الزمن تصطبغ بالصبغة المصرية. وكان عدد صغار المماليك الذين يتم جلبهم كل عام يقارب الألفين، وهو عدد قابل للزيادة فى أوقات الرخاء والحرب، ويقل هذا العدد فى حالة الكساد الاقتصادى. كما كانت عملية التزاوج بين «أولاد الناس» (ذكورا كانوا أم اناثا) والمصريين فى ازدياد، فقد كان أثرياء المصريين وكبراؤهم يقبلون على الزواج من الفتيات الشركسيات اللاتى كن يتميزن بجمال شديد، هذا فضلا عن أن أمراء المماليك كانوا يفضلون الزواج من التجار الأثرياء فى القاهرة لما فى ذلك من امتيازات اقتصادية وسياسية. ونتج عن ذلك وجود ترابط بين أبناء الأمراء والبكوات والمصريين[2].

يمكننا التمييز بين خمسة عناصر كانت تكون النخبة المصرية أثناء الحكم العثمانى؛ وهذه العناصر هى كالتالى:

---

(١) أنظر كتاب: P.M. Halt. Egypt and the Fertile Crescent, 1516 - 1922, Langmans, 1966, PP. 160، 161

(٢) لقد اختفت فى ذلك الوقت أية ميول أو نزعات عنصرية على عكس ما حدث أيام الحكم العثمانى.

١ — أمراء المماليك والبكوات وبيوتهم:

كان لكل أمير و«بك» مملوكى «بيت» يحمل اسمه وينتسب إليه كل أفراد أسرتـه، كما ينتسب إليه كل من فى البيت من طهاة وعبيـد وإماء. وكـان «البيت» بـالنسبـة للمماليك الـرابطـة التى تجمع بين كل من ينتسبون إليه، كما كان لزامـا على من كان فى هذا البيت أن يظهر ولاءه وإخلاصه التـام له. وقد استمر هذا التقليد حتى بضعـة سنوات قليلة مضت، وكاتب هـذا الكتاب مازال يتـذكر مظاهر المعيشـة فى مثل هذه البيوت القاهـرية. وكان الانتساب للبيت والارتبـاط به لا يقتصر فقط على أسرة المملـوك (كما أشرنـا) ولكنـه يمتـد ليشمل العـلاقـات التى أقامها المماليك مع عموم المصريين بما فيها من علاقات قريبة أو بعيدة نتجت عن عدة قرون من التزاوج والارتبـاط بمصالح ومظاهر نشاط مشتركة.

وكان لكـل بيت من بيوت القـاهرة جذوره التى تسمـى «حلقات». وكـان عمـوم المصريين أحيـانـا كثيرا مـا ينضمـون إلى النـزاعـات والصراعات التى تنشب بين بيـوت المماليك، فيتشيع كل منهم إلى بيت من البيوت بشكل مباشر أو غير مباشر. وكان انتصار أحد البيوت على غيره يتبعه الحصول على الامتيازات والمناصب العليـا بالنسبة للفريق المنتصر. وأرى أن مثل هذه التحـزبات القائمة على الحمايـة والمصالح تظهـر بشكل أو بـآخـر فى الأحـزاب السيـاسيـة المصريـة فى الـوقت الحاضر. ولعل مـا نعرفـه اليـوم باسـم « الواسطـة » هـو بقايـا تلك التحـزبات القـديمة والتى كـانت تقـوم على المصالح والحصـول على الامتيـازات.

نأتى الآن إلى العنصر الثـانى فى هـذه النخبـة ذات السلطـة، وعلى طبقة علماء الأزهر.

٢ — علماء الأزهر:

لا يمكن لأى حكم اسلامى أن يؤدى مهامه دون تأييد القضاء ورجاله ورجال الفقه. ويخضع القضاء والفقه الاسلامى للشريعة، كما يتميز القضاء الاسلامى ببراجماتيته وقوته وتأثيره. وعلى الرغم من افتقار الفقه الاسلامى لقانون خاص بتداول الحكم (حتى أنه ينصح المسلم دائما بأن يكون خاضعا للحكم الحالى) إلا أنه يعد مفصلا وواضحا فيما يتعلق بأمور أخرى. وقد ظهر خلال التاريخ المملوكى وفى المرحلة المبكرة من الحكم العثمانى العديد من الشخصيات البارزة والشيوخ والقضاة والعلماء، وكذلك أيضا على وجه الخصوص القادة الصوفيون. وتشير العديد من الدلائل التاريخية إلى ظهور طبقة أولاد الناس ضمن هذه الفئة، فالعديد من أبناء أمراء المماليك انخرط فى الصوفية. ويشير كل من «الشعرانى» و«ابن عماد» إلى أمثلة لذلك؛ فأحد أولاد الناس الشراكسة ويدعى شاهين ابن عبدالله الشركسى اتبع المذهب الصوفى المعروف بالخلواتى، وعاش نحو ٤٥ عاما من التقشف والزهد فى تلال المقطم، حتى أنه أصبح بعد ذلك أحد أهم المؤسسين للطائفة المصرية من نظام الخلواتى.

لسنا فى حاجة إلى الاشارة إلى أهمية الشريعة بالنسبة للمماليك، فقد كان كل نظامهم مرتكزا عليها؛ وكان جزءا مهما من تعليم فرسان المماليك الشباب هو تطبيق فروض الشريعة فيما يتعلق بالحرب، ومبرراتها. تبرر الحرب بأنها دفاعا عن النفس، ودفاعا ضد الظلم والاضطهاد، ودفاعا عن الوطن والمسكن، وعن الحرية القومية. وتتمثل هذه الحرية القومية فى حرية العبادة، وهى من أهم أنواع الحريات، ويحرم القرآن الحروب العدائية العدوانية التى ترمى إلى أهداف مادية. كما كان المماليك يتبعون قاعدة شرعية تستند إلى ما

جـاء فى القرآن: «واذا جنحـوا إلى السلم فـاجنح لـه وتوكل على اللـه». ويعنى هذا أن العدو اذا طلب الهدنة فإنها يجب أن تُمنح له.

لقد تطـورت القواعد والتشريعـات الخاصة بـالحرب لتأخذ شكل المبادىء الملزمة التى يحتذيها المسلم فى المعـركة، والتى تحكم سلوكه تجاه عـدوه. ولعل الصراع بين المسلمين والجيـوش الأوروبيـة أثنـاء الحروب الصليبية أسفرت عن تأثر المؤسسة الحربية الأوروبية بهذه المبادىء؛ ولعلنـا هنا لسنا فى حـاجة إلى الكلام عن الاتجاهـات النبيلة والسلوك الانسانى الـذى أظهره السلطان صلاح الـدين ورجاله تجاه ريتشارد قلب الأسد والصليبيين عموما.

لقد كان بكوات المماليك فرسـانا بكل ما فى الكلمة من معنى. ويبدو للمرء أن المبـادىء التى كانت تحكم فـرسان الملك آرثـر قد تكـون قد استلهمت من مبـادىء المماليك المصريين. تتجلى لنا مبـادىء المماليك المثاليـة فى حديث آخـر سلطان مملوكى مصرى وهـو (طومـان باى) والـذى كـان يخاطب فيــه السلطـان العثمانى سليم الأول. ولعلمـه المسبق بأنه سيموت شنقا على باب زويلـة أفضـى طومان باى بكل ما لديه إلى سليم الأول فأخبره بأنه هزمــه معتمدا على مجموعة رعاع من الايطاليين واليـونانيين الذين استخدمـوا بدورهم أساليب حـربية لا تتصف بـالنبالـة مثل البـارود و«أسلحة النســاء» واستغلـوا نبالـة الفرســان المصريين. كما خاطب أحـد الفرسـان المصريين سليم الأول قــائلا: «كيف سمحت لنفسك بأن تطلـق النـار على مسلمين؟ مــاذا ستفعل عنـدما تجد نفسك فى حضرة اللـه، وماذا سيكون جـوابك؟ إن كل ملك ـ مهما كـانت عظمته ــ ماهو إلا عبـد لله. إنما أنت وأنـا لسنا أكثر من عبيد».

وفى نفس الموقف أخذ أمير آخر يدعـى «قورباى» يكيل اللوم لسليم الأول قائلا: «استمـع إلى كلماتى وانصت إليها. إن فـارسا واحـدا منا

يمكنــــه أن يهزم جيشك بأكملـــه. إن كنت لا تصـــدق ذلـك فعليك بالمحـاولة؛ فقط آمـرك أن تتخلى عن هذه الأسلحـة، واحتفظ بمواقعك وليأخـذ جيشك وضع الحرب؛ وسيقاتلك منـا ثلاثـة فرسان فقـط أنا عبـدالله والسلطـان طومـان بـاى والأمير «عـلان»، وسترى بعينيك ما يمكن أن نفعله. وستعرف حينئذ إن كنت تستحق أن تكون ملكا أم لا».

وكما ذكـرنا سـابقا فقـد شغل علماء الشريعة الاسـلامية والفقـه الاسلامى وفـلاسفة الصوفيـة مكانـة بارزة اذ كانـوا يمثلون عنصرا أساسيا فى بنية النظام المملوكى، هذا فضلا عن أن هذه المناصب كانت تجذب «أولاد النـاس» الذين كـانـوا يميلـون إلى العلم والتفقه. وكـان العلماء يتمتعـون بالقـوة والمهـابة داخل النظـام المملـوكى لما كانـوا يتمتعون به من عـلاقات نسب قوية مع بيـوت البكوات، كما أن الدور الذى كانـوا يلعبونه كقضاة شرعيين ومفسرين للقـرآن جعل سلاطين المماليك فى حاجـة دائمة إلى التأييـد الشرعى منهم. وفى القصة التـالية التى يخبرنا بها الجبرتى نجد مثالا على قوة ومهابة هؤلاء.

حدث ذات مرة خلاف كبير بين أمير مملـوكى فظ يدعى يوسف بك الكبير والشيخ على السعيـدى العدوى فيما يتعلق بمـوضوع طـلاق؛ وعلى أثر هذا الخلاف هدد يـوسف بك الشيخ العدوى. بتحطيم رأسه، فكان قـول الشيخ ردا على هذا التهـديد: «ليلعنـك الله، وليلعن تـاجر العبيد الـذى أحضرك هنا، و لينـزل بلعناته على مـن باعك واشتراك». وعندما اجتمع الأمراء لحل هذا الخلاف[1] أقروا جميعا أن آراء الشيخ فيما يتعلق بموضوع الطلاق هى الآراء الصائبة.

نأتى الآن إلى العنصر الثـالث من عنـاصر النخبـة المصريـة فى ذاك الوقت.

---

(١) الجبرتى: سنة ١١٨٠ ـ الكتاب الثالث ـ تأبين الأمير يوسف بك الكبير.

٣ — النقابات والطوائف الحرفية:

كانت النقابات والطوائف الحرفية من أكثر مؤسسات الدولة المملوكية التى ظهرت فيها الديمقراطية الاسلامية بأكثر وضوح، وعلى وجه الخصوص فى القاهرة. ولم تكن النقابات مقصورة على التجار والحرفيين، ولكن كانت هناك نقابات لكل عضو فى المجتمع، فكانت هناك نقابات للطلبة والمعلمين، والخدم، والسقايين، وأيضا نقابات للصوص والنشالين والعاهرات. ومن خلال تلك النقابات أمكن لجميع المواطنين أن يجدوا القناة التى يعبرون من خلالها عن آرائهم الاجتماعية والسياسية الأمر الذى جعل لهذه النقابات اتجاهاتها المحددة والواضحة داخل النظام الاجتماعى[1].

ولم يكن للحكام أن يتدخلوا فى شئون هذه النقابات والطوائف، والتى كانوا يحترمون استقلاليتها. ومن خلال الزواج دخلت عناصر من أولاد الناس إلى النقابات فأصبحت هناك علاقات قرابة قوية بين أعضاء النقابات وبيوت المماليك الأمر الذى أهل النقابات لأن تلعب دورا سياسيا أثناء الصراعات بين بيوت المماليك والتى كانت سمة ملازمة لمدينة القاهرة.

وكان على رأس كل نقابة شيخ يتولى رئاسة ديوانها أو اللجنة العليا بها. وكان هذا الشيخ فى العادة شخصية قوية تحوز احترام الحاكم المملوكى. يوضح الجبرتى ذلك بروايته للعديد من الأحداث التى تظهر قوة النقابات حتى نقابات وطوائف الشحاذين، فيروى الجبرتى عن الأمير ابراهيم بك أبو شنب أنه كان معروفا عنه الانفاق فى أعمال الخير والعطف على الشحاذين. وفى عام ١٠٩٩ تولى ابراهيم بك

---

(١) أنظر كتاب «جيبس وباون» «المجتمع الاسلامى والغرب» ـ المجلد الأول ـ الجزء الأول ص ٢٧٧ وعنوانه الأصلى بالانجليزية:

Gibb & Bawen, Islamie Society and the West, Vol. i Par 1.

امارة الحج أى أنــه كان مسئـولا عن توصيـل الحجاج إلى مكـة. وعند رحيلـه عن القاهـرة اصطحبـه حتى أبواب المدينـة طـائفة شحـاذى القاهـرة كلها وعلى رأسهـا شيخها الـذى أعد لابـراهيم بك حفل وداع كبير. وعند عودتـه من مكة كانت الطـائفة كلها فى انتظاره، وكـانوا قد جمعوا من بعضهـم نحو ٢٢ ألف بارة ليقـدموهـا هدية لابـراهيم بك وذلك مع حصان رمـادى غالى الثمن تغطيـه ألجمة عديـدة من الجلد والفضـة. وعلى أثـر ذلك دعا ابراهيم بك كل شحاذى القـاهرة إلى حفل كبير استمتع فيه الجميع. تـذكرنى هذه القصة بحادثـة أخرى وقعت أثناء زيـارة الرئيس نيكسون لمصر عـام ١٩٧٤. كان أحد البـاشوات المصريين ذوى النفوذ قـد سُرقت محفظته، وكـانت تحتـوى على جواز السفر، ورخصة القيادة، والبطاقة الشخصية فالتجأ هذا الصديق إلى قريب له، وهـو ضـابط شرطة ذو رتبة كبيرة، فقال لـه ضـابط الشرطة: «يمكن أن تستعيد أوراقـك ومستنداتك ولكنك ستفقـد النقود. ولكنى سأفعل مـا بوسعـى» وبعد ذلك بيـوم اتصل ضـابط الشرطة وقـال: «أخشى أننـا سنتأخر قليـلا فى اعـادة أوراقك ذلك أن زيارة الـرئيس نيكسون تستنفـد كل طاقاتنا وعلينـا بدفع النشالين إلى الاسكنـدرية حتى يشاركوا قوات الأمن فى تأمين الـزيارة. وحال عودة النشالين إلى القاهرة ستعود إليك محفظتك فى الحال».

هاتـان القصتان لهما مغزاهما. فـابراهيم بك أبـو شنب فضلا عن اهتمامـه بالأعمال الخيريـة إلا أنـه كان رجل سيـاسـة حاذق. وكـان عضـوا فى بيت مملوكى قـوى وهو بيت «قـاسم»، وكان هـذا البيت فى صراع مريـر مع بيت مملوكى آخر هو بيت «ذوالفقـار». وهذا الصراع جعل لطائفة الشحاذين (التى كانت فى صف ابراهيم بك) أهمية كبيرة وذلك بسبب قـدرتها على جمع المعلـومـات والتجسس. أما فى حـالـة زيارة الرئيس نيكسون فـإن النشالين لعبوا دورا كبيرا وذلك لقدرتهم

على اكتشاف أى أسلحة يمكن أن يخفيها أى شخص وتشكل خطرا على حياة الرئيس نيكسون!

نأتى الآن إلى العنصر الرابع وهم جباة الضرائب.

ـ الملتزمون :

الملتزم هو جاب للضرائب يتبع الدولة وفى الوقت نفسه يشارك المزارع فى ادارة الأرض؛ وللملتزم عدد من القراريط تتناسب ونصيب الدولة من قطعة أرض يعمل فيها فلاح[1]

وبهذا الشكل كان جابى الضرائب أو الملتزم يلعب دورا مهما فى البنية الاقتصادية للبلد، فان عليه أن يفى بنصيب الدولة من دخل الأرض وان اضطر إلى زيادة الضرائب والأعباء التى ينوء بها كاهل الفلاح[2] علاوة على ذلك فإن المناخ السائد فى العصر المملوكى والذى كان يتسم بوجود العصبيات والتحزبات والتجمعات المتناحرة أرغم جابى الضرائب على محاولة كسب تأييد وتعاطف الفلاح، وهى حقيقة يغفلها الكثير من المؤرخين ـ خصوصا الغربيون منهم ـ الذين يبالغون فى اظهار الجوانب السلبية[3] دون أن يعطوا الجوانب الايجابية حقها. وخلال العصر العثمانى اكتسب الفلاح امتيازات أكبر فأصبح بامكانه أن يملك الأرض ويورثها لأبنائه بعد أن كان ذلك من حق الملتزم. أدى هذا بمرور الوقت إلى ظهور طبقة من أثرياء الفلاحين. وكان من الطبيعى أن يحدث تزاوج بين هذه الطبقة والطبقات الأخرى الأمر الذى أسفر ـ بمرور الوقت ـ عن ايجاد روابط وعلاقات قرابة بين طبقة أولاد الناس والفلاحين[4].

(١) الجبرتى: المجلد الرابع ـ أنظر كذلك كتاب «جيبس وباون» المجلد الأول ـ الجزء الأول ص ٢٦١.

(٢) الجبرتى: المجلد الثانى.

(٣) أنظر كتاب «جيبس وباون» المشار إليه سابقا وذلك فى المجلد الأول ـ الجزء الأول ص ٢٦٩.

(٤) أنظر كتاب «جيبس وباون» المجلد الأول ـ الجزء الأول ص ٢٦٠.

كان الملتـزم ذا أصول ترجع غـالبا إلى طبقة أولاد النـاس؛ وظهرت هـذه العـلاقـة بين الملتـزم وأولاد الناس أكثـر وضـوحـا فى الحقبـة المملوكية الأخيرة وأثناء الحكم العثمانى. وكـان الملتزم يمثل جزءا من نظـام يتـدرج مـن البكـوات العثمانـى ثم المماليك ثم الملتــزمين ثم الصرافين (وهم المشرفون الحاليون وعادة ما يكونون من الأقباط) ثم أخيرا الفـلاحـون. وقد كـان الملتـزمـون يمثلـون بـدرجة مـا طبقـة أرستقراطيـة تعتمد فى مواردهـا على انتاج الفـلاحين المأجورين. لكن علينا أن نـلاحظ فى هذا السياق أنـه بجانب طبقة الملتـزمين (الذين لم يكونوا مالكين للأرض) برزت طبقة أخرى مستقلة من مُلاك فعليين.

ــ القبائل العربية فى مصر:

استقرت القبائل العربية فى منـاطق شاسـعة من الأراضـى المصرية، وبمرور الوقت اختلطت هذه القبـائل بجماعات الفلاحين واكتسبت ما يمكن أن نسميـه النمط المصرى فى الحياة والسلـوك. وقد لعبت هـذه القبائل إبـان العصر المملوكى وكـذلك أثناء فترة الحكم العثمانى دورا سياسيـا بارزا وذلك فى اتجاهين: أولا كان دورهـم السيـاسـى واضـحا فى الصراعات الـدائرة بين بيوت المماليك والعصبيـات المختلفة، ثـانيا: كان لهم دور بارز فى مـواجهة الغزاة الأجانب خصـوصـا الأتراك، فقد كـانت قبائل البـدو فى مقـدمة المواجهـة ضــد الصليبيين، كما كانــوا يساندون المماليك فى مقاومتهم للعثمانيين.

لقـد حـرصت بيـوت المماليك فى القاهـرة على ايجاد عـلاقـات مع قيادات القبائل العربية، وذلك لأن شيـوخ هذه القبائل كانوا يتمتعون بالنفوذ؛ هذا فضــلا عن علاقاتهم القوية بالطـرق الصوفية التى كان لها هى الأخـرى دور بـارز فى تأييـد البيـوت الملـوكيـة. ومثل هــذا التعاون وهذه العلاقة بين السلطة الحاكمة والطرق الصوفية نجد لها مثالا فى العــلاقة بين السلطـة فى المملكة العربيـة السعوديـة والحركة

الوهابية. وكان عدد القبائل العربية التى استقرت فى مصر إبان العصر المملوكى لا يقل عن ثلاثين قبيلة من أشهرها العبابدة والهوارة والهنادى والبدارى وهى قبائل تقطن مصر العليا، وفى الدلتا كانت توجد قبائل الطرابين والقطارى وبنى واصل. هذا بالاضافة إلى بعض القبائل الليبية التى استقرت فى مناطق معينة بالدلتا وأصبحت بعد ذلك تشكل عنصرا أساسيا فى محافظة البحيرة مثل أحاد على والقذافية. وكانت هذه القبائل على علاقات وثيقة بالطرق الصوفية مثل الرفاعية والبدانية، وغيرها.

● الفصل الرابع ●



العلاقات مع الولايات المتحدة

يقدم هـذا الفصل تحليلا جديـدا من منظور مصرى للظروف والملابسـات التى أحاطت بالعلاقـات المصرية الأمـــريكيـــة، والعـــوامل التى أدت إلى حـــرب ١٩٥٦ وعواقبها.

كما أشرنا ســابقا كـان هناك دور أمـريكى لا يمكن اغفالـه فى عملية استبعاد فاروق ففى ذلك الـوقت كان

لعبدالناصر علاقة وثيقة بكيرميت روزفلت، وكان لهذه العلاقة أثرها البالغ اذ حال الأمريكيون دون أى تدخل من جانب بريطانيا لصالح الملك. إلا أن دور أمريكا فى مساندة عبدالناصر مازال محاطا بالسرية إلى الآن، وذلك بغض النظر عن كتابات بعض عملاء جهاز المخابرات الأمريكى السابقين مثل «مايلز كوبلاند» الذى كان له دور مهم فى هذه الفترة.

يرجع الغموض الذى كان يكتنف العلاقات بين أمريكا ومصر إلى وجود تناقض فى الأهداف، فبينما كان الهدف الرئيسى للأمريكيين هو تأييد اسرائيل كانت الغالبية الكاسحة من المصريين والعرب تحلم بانتصار العرب على الدولة الصهيونية.

ومن هنا كان كل من الجانبين (عبدالناصر وأمريكا) تعترضهما عقبات فى سبيل تكوين علاقة واضحة وصريحة؛ وذلك لأن الأمريكيين كانوا مضطرين لارضاء لوبى صهيونى قوى داخل الولايات المتحدة بينما كان على عبدالناصر أن يواجه رأى عام مصرى وقوى أيضا ضد اسرائيل. وبالفعل كان عبدالناصر كثيرا ما يتهم من قبل خصومه بأنه أصبح أداة تستخدمها أمريكا لتهدئة الصراع مع اسرائيل، على النقيض من ذلك كان فاروق معارضا لأية عملية استغلال سياسى غربى ومن ثم أصبح ضحية للنفوذ الغربى الذى مارس معه عمليات اغتيال الشخصية. لقد كان الملك وطنيا بكل ما فى هذه الكلمة من معنى وذلك فى مواقفه من تعديات القوة العظمى فى الشرق الأوسط ومن الوجود الدائم لاسرائيل فى المنطقة. أما سياسة عبدالناصر فكان من الواضح أنها تنطوى على التعاون بل والخضوع التام لرؤى القوى العظمى الغربية. لقد كان لعبدالناصر علاقات وثيقة ومتعددة مع العديد من عملاء وكالة المخابرات المركزية الذين استقروا وعملوا فى القاهرة؛ و فى هذا السياق أشير إلى «مايلز كوبلاند» الذى ألقت كتاباته

الكثير من الضـوء على تعاون أمـريكا مع الثـورة المصرية. حيث قـدم «مايلز» فى كتاباته معلومات لا يمكن لغيره أن يقدمه[1]

لقـد اتسمت السياسـة الناصريـة عام ١٩٥٣ بتهـدئة الصراع مع اسرائيل وذلك بشكل مستتر، ومثـالنـا الـواضح على ذلك هـو الطلب الذى قـدمه ممثل مصر فى الأمم المتحدة للدكتـور «رالف بانش» وذلك للتوسط لدى «مستـر شاريت»[2]. كل ذلك بالاضافة إلى أنشطة أخرى للقيادة الناصريـة أدت إلى احداث شقاق داخل صفـوف رجال الثورة. وصل ذلك الشقاق إلى ذروتـه عام ١٩٥٤ الأمر الذى دفع عبـدالناصر بناء على نصيحـة من وكالة المخـابرات المركزية إلى محـاولـة استبعاد اللواء نجيب من منصبه كرئيس للجمهورية.

لقد كـان نجيب وطنيا مخلصـا وكان صدى لـلاتجاهات الـوطنية التى سادت إبـان حكم فاروق. وكان نجيب مناهضـا لسياسة تهدئة الصراع مع اسرائيل كما كان مخلصا أيضا للقضية الفلسطينية، وفيما يختص بصراع مصر مع بريطانيا كان نجيب مـؤيدا لوجهة النظر التى

---

(١) أنظر كتاب «مايلز كوبلاند» وعنوانه «لعبة الأمم» وعنوانه باللغة الانجليزية:
Miles Copeland, The Game of Nations, Weideufeld and Nicolson, London 1969.
أنظر ايضـا كتابـه: The Game Plouer, awrum pten ltd, London1989.

(٢) فى عدد أكتوبر نوفمبر ١٩٩٠ من دوريـة بعنوان «المخابرات والأمن القومى» كتب ضابط اسرائيلى مقالا تحت عنـوان «اتصالات اسرائيلية مصرية» وقال فيـه: «ما بين عامى ١٩٥٣ و١٩٥٦ تم ما يقرب من اثنى عشرة محاولة للوساطـة والاتصال المباشر منها ما هو معروف ومنها ما لم يتم الكشف عنه، وكان الهدف من هذه الاتصالات هو بحث احتمال عقد مبـاحثات تهدف إلى استقـرار الأوضـاع؛ ومن بين تلك الاتصـالات ما قـام بـه رئيس وزراء اسرائيل ووزيـر خـارجيتهـا بعد ذلك «مـوشى شـاريت» وذلك من خلال وسـاطة شمـويل ديفـون، وجـدعـون رافـايل، والملحق الصحفى المصرى فى بـاريس عبـدالـرحمن صـادق، واتصـالات أخـرى تمت من خـلال شخصيـات مثـل «مـوريس أوربـاش» عضـو البرلمان الانجليزى والأمريكيين «إلمور جاكسون» و«روبرت أندرسون».

كان يعبر عنها شعار: «لا محادثات دون جلاء». ويعنى ذلك أن مسألة جلاء بريطانيا عن مصر لم تكن موضع محادثات أو حوار بل كان يجب التسليم بها قبل أى نقاش أو حوار. لقد كان هذا هو التوجه المصرى الطبيعى ازاء مسألة انسحاب القوات البريطانية عن مصر. وقد تأثر نجيب فيما يختص باتجاهاته الوطنية بعلى ماهر باشا. لم يكن على ماهر ممن تبنوا الاتجاهات الوطنية فقط. ولكنه كان أحد أبرز من قاموا بتشكيل هذه الاتجاهات.

نتيجة لهذا كله كادت شعبية عبدالناصر تتعرض للاهتزاز. فقد كان الجيش على وجه الخصوص ينظر للعلاقات مع أمريكا واسرائيل بنوع من الحساسية. وعلى الرغم من أن مجموعة الضباط الأحرار كانت تضم رجالا ذوى قناعات وآراء سياسية متباينة إلا أنهم كانوا جميعا معارضين لعلاقة عبدالناصر بأمريكا. ومن بين هؤلاء وأبرزهم كان خالد محيى الدين الذى كانت اتجاهاته تميل نحو الاشتراكية. لقد انحدر معظم الضباط الأحرار من الطبقة البرجوازية الوسطى، وكانت اتجاهاتهم السياسية تقليدية تأثرت بشكل كبير بالاتجاهات السياسية التى كانت سائدة فى فترة حكم فاروق. ويمكن القول بأنه كانت لديهم اتجاهات وطنية كما كانوا مؤيدين للقضية الفلسطينية وإن لم يتكون لديهم بعد التزام عربى واضح، وهو الشىء الذى حدث بعد انشاء الجامعة العربية.

أما المواجهة التى حدثت بين عبدالناصر ونجيب عام ١٩٥٣ فقد كان دائما ما يشار إليها بأنها تعارض بين مصلح شاب (عبدالناصر) ومعه مجموعة من الضباط المثاليين فى مواجهة شخص رجعى ضعيف هو نجيب الذى تأثر بعناصر تبغى الرجوع إلى الحكم الملكى، وأثار هذا الصراع قضية مهمة فى ذلك الوقت وهى ما اذا كانت الديمقراطية تناسب اللحظة التاريخية آنذاك أم أن الديكتاتورية

العسكرية هى الأنسب لصالح البلد.

ويحضرنى هنا مؤرخ سويسرى أرخ لعبدالناصر هو جورج فوشى[1].

وفى تناول «فوشى» لأزمة نجيب اتبع نفس الاتجاه البسيط المشار إليه سابقا، فلم ير فى تلك الأزمة شيئا أكبر من مجرد صراع بين قوى التقدمية وقوى الرجعية، وهو تبسيط يقترب كثيرا من فكرة الصراع الأبدى بين الخير والشر.

إلا أننا على الرغم من هذه المواقف من قبل القيادة الناصرية لا يمكننا أن ننكر أهمية الجبهة الوطنية التى كانت تتبنى موقف الجلاء غير المشروط عن مصر، والتى كانت موالية للقضية الفلسطينية. وهنا علينا أن نلاحظ أن موقف نجيب الراسخ تجاه عمليات تهدئة الصراع مع اسرائيل بناء على اقتراحات الأمريكيين، فضلا عن موقفه تجاه عمليات التسوية مع بريطانيا بشأن قناة السويس كان يعضده تأييد جماهيرى كبير.

بناء على ماسبق لا توجد صعوبة فى تصور أسباب استبعاد نجيب. فقد كان اللواء نجيب سببا مباشرا فى ايجاد اتجاه معارض قوى تجاه النفوذ الأمريكى وتأثيراته. كما كان من الممكن لشعبية نجيب القوية أن تحول دون تطبيق السياسات التى تم الاتفاق عليها بين عبدالناصر وروزفلت فى أثناء الشهور السابقة على قيام الثورة.

لكل هذا كان يجب التخلص من نجيب. لقد كان ولاء عبدالناصر لأصدقائه من وكالة المخابرات المركزية أكثر من ولائه للقضية

---

(١) أنظر كتاب «جورج فوشى» الصادر فى باريس بعنوان:

Georges Vaucher, Gamla Abd elNasser at son eqibe, Julhiard paris, 1959 Val. 2 pp.133 to 138.

الوطنيـة، وهو الشـىء الذى حـال دون تفهمه واستيعـابه للمشـاعر الوطنية التى كانت سائدة فى ذلك الوقت.

على الرغم من كـل ذلك فإن العلاقات مع أمـريكا بعـد أزمة نجيب بـدأت تفتر وتضعف، الأمـر الـذى كـان يخدم مصـالح الاتحاد السوفيتى.

الجزء الثانى

بداية الأزمة

● الفصل الخامس ●



الثورة المضادة وانتصار نجيب

يمكن اجمال الأحداث التى تمت فى اطار المواجهة بين نجيب وعبدالناصر فيما يلى.

قبل عـــزل نجيب بفترة قصيرة وصل إلى القـاهــرة بشكل سرى ممثل خــاص لايزنهاور وذلك لمراقبــة هذه المواجهــة بين نجيب وعبـدالنــاصر. وكــان من حظى أن قــابلت هــذا المراقب الأمريكى فى فندق سميراميس وكان

يصحبه سمير سوكتى الذى كان يعمل آنذاك مراسلا «لليونيتد برس» فى القاهرة وكان فى ذات الوقت على علاقة بوكالة المخابرات المركزية. وعندما قابلتهما قال سمير «لقد أرسل الرئيس الأمريكى الكولونيل «×» ليعمل مراقبا.» فقلت: «وماذا سيراقب؟» رد سمير: «ستعرف ذلك حالا».

فى الثانى والعشرين من فبراير عام ١٩٥٤ طالب عبدالناصر (وأيده فى ذلك غالبية الضباط الأحرار) باقالة نجيب؛ فاستقال اللواء نجيب يوم الثالث والعشرين، وفى ليلة الرابع والعشرين اجتمع فى ثكنات العباسية مجموعة من الضباط المنشقين على رأسهم خالد محيى الدين، ووجد هؤلاء الضباط بعد حادث نجيب أن عليهم أن يتحركوا ضد عبدالناصر الذى اتهموه بخيانة الثورة.

وهكذا أصبح مسرح الأحداث معدا لحركة ثورية تتزعمها قوات عسكرية كبيرة كانت تتمتع باتجاهات وطنية وكانت تناهض الميول نحو أمريكا التى تجسدت فى العلاقات بين عبدالناصر وروزفلت.

وعندما علم عبدالناصر بهذا الاجتماع اتجه ومعه مجموعة من الضباط الموالين له من بينهم عبدالحكيم عامر للعباسية لمناقشة الوضع مع خالد ومجموعته. وفى هذا الاجتماع طالب خالد ومن معه بعودة اللواء نجيب؛ وبعد نقاش طويل قبل عبدالناصر ذلك كما وافق على تكوين حكومة جديدة يتولى نجيب رئاستها ويشغل فيها خالد منصب رئيس الوزراء. وفى نفس الوقت اتجه ضابطان من أولئك الموالين لعبدالناصر إلى منزل نجيب وذلك لاستبعاده من المشهد حيث قاموا باحتجازه فى معسكر قريب من القاهرة وهذه المهمة التى أداها كل من العقيد داود عويس والعقيد كمال رفعت أجبرت خالد ومن معه على قبول تسوية اقترحها عبدالناصر. وعلى إثر هذه التسوية عاد اللواء نجيب إلى منصب الرئيس بينما شغل عبدالناصر منصب رئيس

الوزراء. وفى السابع والعشرين من فبراير احتشد فى ساحة عابدين جمهور كبير من المواطنين يؤيدون الرئيس نجيب. وهكذا أحبطت خطط عبدالناصر لاستبعاد نجيب بينما عاد مبعوث ايزنهاور إلى واشنطن بعد فشل المهمة التى جاء لأجلها.

فى أعقاب ذلك وفى السادس والعشرين من أكتوبر عام ١٩٥٤ تعرض عبدالناصر ـ بينما كان يلقى خطابا فى الاسكندرية ـ إلى محاولة اغتيال فاشلة على يد محمود عبداللطيف وكان أحد أعضاء جماعة الاخوان المسلمين.

بعد ذلك بدأ عبدالناصر يعيد النظر فى سياساته تجاه اسرائيل وأمريكا تلك العلاقات التى كانت مصدر قلق له لما سببته له من مشاكل.

وأود أن أشير فى هذا الفصل إلى أن مجموعة الضغوط التى تحملها الرئيس عبدالناصر فى ذلك الوقت كانت لابد أن تؤثر على صحته الشىء الذى أدى بعد ذلك إلى اصابته بالسكر والبارانويا وظهور بوادر الفصام.

● الفصل السادس ●



رحلة إلى فلورنسا..
اجتماعات ولقاءات سرية

وصلنا إلى مدينة فلورنسا (ذات الطابع المميز لعصر النهضة والمناظر الطبيعية الخلابة) حيث كان مقررا عقد أول لقاء غير رسمى بين ممثلين عن العرب وممثلين عن اسرائيل.

كان يُعقد فى فلورنسا آنذاك ما يسمى بمؤتمر دول البحر المتوسط والذى نظمه أستاذ جامعى ذو نزعة

كـاريزميـة هـو البروفيسور «لابيرا» وجـاء هـذا المؤتمر تحت رعايـة وتأييـد من قبل الحكومـة الايطاليـة ممثلة فى شـخص رئيس الـوزراء آمينتورى فانفـانى. كما كان من ضمن المشاركين فى اقامة هذا المؤتمر أحد التيارات السياسية فى الفاتيكـان يمثله بعض قساوسة الجيزويت هذا فضلا عن مشاركة شـخصيـة أخرى تتسم بالغموض وتعتبر رمزا لصناعة البترول فى ايطاليا وهو السنيـور انريكو ماتى رئيس الشركة الوطنية للبترول.

وللمـرة الأولى فى تاريـخ ايطاليـا بعـد فشل موسـولينى فى اعـادة تكوين الامبراطورية الرومـانية بدأ الزعيم الايطالى آمينتورى فانفانى السعى لأن تلعب ايطاليا دورا قياديـا فى شئون البحر المتوسط ـ دورا يجذب أنظار العالم (والأمريكيين على وجـه الخصوص) إلى مجد روما القـديم وفى ذلك الـــوقت لم يكن لكل من بـريطـانيـــا وفـرنســا دور دبلوماسى بارز وذلك فى أعقاب العدوان الثلاثى على مصر عام ١٩٥٦ ـــ الشىء الذى أغـرى «فانفـانى» بالسعى إلى اتخاذ ايطـاليا للـدور الدبلوماسى لهاتين الدولتين.

وجاء حضورى لهذا المؤتمر نتيجة لمجموعة من الظروف. فقد كان ذلك نتيجة للقاء حدث بمحض الصدفة بينى وبين الصحفى الفرنسى «جان دانييل» وهـو صحفى فرنسى بارز على طراز ألبير كـامى. وقد اكتشف «دانييل» خلال حـديثه معى اننى أتبنى نفس وجهـات النظر الهيومانيـة التى يتبناها. وبعد ذلك وجـدته يوجه لى الـدعوة لحضور هذا المؤتمر.

لقد كـان من الصعب مواجهة اغـراء السفر إلى ايطاليا وإلى مـدينة فلـورنسـا على وجـه الخصـوص. إلا أن الجلـوس فى منـاقشـات مع الاسرائيليين كان أمـرا غير مريح للغايـة فاستعنت بمشورة الـدكتور مراد غالب المستشـار السياسى للرئيس عبدالنـاصر لاسيما أن الوفد

العربى فى هذا المؤتمر ـ كما علمت ـــ تضمن شخصيات كان ينظر لها بعين الشك مثل خـالـد محيى الـدين صاحب الاتجاهـات الماركسيـة والذى تزعـم التمرد ضد عبدالناصر بعـد استبعاد نجيب؛ كما تضمن الـوفد أيضـا ميشيل عفلق رئيس أحد الأحـزاب الشيوعيـة العربيـة، وأكـرم حـورانى رئيس حـزب سـورى راديكـالى آخر هو الحزب الاشتراكى وجـورج حنين وهـو أحـد المفكـرين المصريين البـارزين والذى كان مناهضـا للشمولية كما كان يتسم باتجاهاتـه الهيومانية. وكما يبـدو فإن جميع أعضاء هـذا الـوفـد ـ بـاستثنـائى أنا ـــ هى شخصيات غير ممثلة لشعوبها وذات اتجاهات ماركسية.

وأعلمت بعد ذلك بموافقة الـرئيس وتأييده لحضورى هذا المؤتمر على أن ألاحظ أية تطورات غير عادية وأكتـب بها تقريرا. وجاء تساؤلى بعـد ذلك «هل مـن الضرورى أن أشـترك فى نقـاش مع الاسرائيليين؟» فجائتنى الاجـابة «نعم اشترك وائتنـا بتقريـر عن ذلك». وهكذا فى لمح البصر وجـدت نفسى أنا وزوجتى فى فلـورنسـا وذلك بعد أن قضينـا يومين فى صحبـة جورج حنين وزوجتـه بولا. وكـانت «بـولا» حفيدة شـاعر مصر الكبير أحمد شوقى. وكانـت تتمتع بهيئة بيزنطية تشوبها ملامح من «إديث سيتويل» وحتـى تلك اللحظة لم يكن أى من أعضاء الوفـد العربى قد ظهر، لعلهم كـانوا مرتابين لحضـورى. اذ لابد أنهم كانوا ينظرون إلى باعتبارى عميلا ناصريا.

وعلى الغـداء كان لنـا لقاء مع سفيرنـا ثـروت عكاشـة، وهو أحـد المفتونين بالشـاعر خليل جبران كما كـان ينزع إلى الاتجاهات التقدمية الاشتراكية. وكـان معالى السفير يتحـدث باعجـاب شديـد عما أسماه «أستاذنـا العظيم هنرى كـوربيل». وكان كل من جـورج حنين وبولا يثنون على هذا الوصف، أما أنـا فلم أرتح لذلك لأنى لم أكن من عابدى الأبطال كما كـان لدى بعض المآخذ على «هنـرى كورييل» الـذى كان

رائدا ماركسيا لجيل من الشباب المصريين كما كان زعيما روحيا لمجموعة من الثوريين العسكريين الذين كانوا يناهضون الحكم الملكي. وسألت السفير بعد ذلك: «ومن سيتولى تسديد نفقاتنا فى فلورنسا»؟ فأجاب «فى الواقع لست على علم بذلك». لكننى أعتقد أن مدينة فلورنسا ستتولى ذلك. ولكنى فزعت بعد ذلك عندما اكتشفت أن نفقات هذا المؤتمر كانت مقدمة من المجلس الصهيونى العالمى.

كانت فلورنسا تعج بالأعلام والرايات والبشر، وكانت الشوارع تزينها الألوان فى كل مكان. وأمام «البلازو ديلاسينيورا» احتشد الناس ليشهدوا وصول الوفود المختلفة. وكان المشهد خلابا يبدو لهم وكأنه العرض الأول لفيلم من انتاج هوليوود، وتدور أحداث هذا الفيلم فى فترة عصر النهضة. لقد كانت المبانى تنطق بعبقرية «برونيليتشى» و«مايكل أوزو» تزينها الأعلام والرايات.

وفى قاعة «البلازوفيتشيو» تجمع الصحفيون والسياسيون. وباعتبارى صحفيا ارتديت مع الصحفيين الملابس المخصصة لنا وهى عبارة عن قمصان بيضاء وسترات داكنة. وكان معنا وفود من شمال افريقيا، كما كان فى مواجهتنا صحفيون اسرائيليون من تل أبيب؛ وكان هناك أيضا بعض الخونة من الفلسطينيين الذين كانوا أعضاء فى الكنيست وكان الغموض يكتنفهم كما كان معنا ليبيون ومستعربون فرنسيون. يا إلهى كيف تسنى للبروفيسور «لابيرا» أن يخلق نظاما وتناغما من هذا الخليط المشحون بالمتناقضات!!

وكنا فى البداية متأكدين أن جلسات هذا المؤتمر ستكون خاصة ومغلقة. إلا أننا رأينا بعد ذلك أن طبيعة المؤتمر المغلق لا تتناسب وطبيعة فلورنسا وأهلها الذين ـ بحكم التحمس اللاتينى الذى يجرى فى دمائهم ـ كانوا مغرمين بالخطب المجلجلة والمؤثرة. إلا أن المنطق يقول أن حضور أطراف متنازعة فى مؤتمر واحد يفرض عليه أن

يكـون مغلقا. وفى النهـايـة حسم البروفيسـور «لابيرا» ــ وهو أحـد أعضاء الحزب الديمقراطى المسيحى ـ الأمر بأن أعطى افتتاح المؤتمر صبغة رسمية وجادة وحضر إلى فلـورنسا فى ذلك الوقت موكب مهيب مكون من الـرئيس الايطالى «جـرونشى» ورئيس الوزراء «فـانفانى» وممثلى الفاتيكان والوفود الدبلوماسية المختلفة.

وفى قاعة «البلازوفيشيو» الهائلـة التى يرجع تاريخها إلى العصور الـوسطى بدأت مـراسم افتتـاح المؤتمر والذى حفلت أيـامـه الثلاثـة بالاضطراب والقلاقل.

وفى بـدايـة المؤتمر أبـدت وفـــود شمال افـريقيـا اعتراضهـا على الاحتفـالات والمسيرات العـامة التى صبغت أعمال المؤتمر بـالصبغـة الرسمية، ومن ثم رفضت هذه الوفود المشاركة فى المؤتمر اذا ما سُمح للاسرائيليين بـالمشاركة. وتطـور الأمر حتى وصل إلى مرحلـة هددت فيها معظم الـوفود بالانسحـاب وعلى رأسهم الأمير مولاى حسن ولى عهـد المغـــرب آنذاك وضيف شرف المهرجان؛ وفى تلك اللحظة لم يكن هناك من بديل أمـام البروفيسور «لابيرا» إلا أن يطلب من الاسرائيليين أن ينسحبوا. وفى اليـوم التالى جاء الـدور على الوفد الفـرنسى ليبدى اعتراضـه بل ورفضـه لحضور الوفـد الجزائرى، هذ الحضور الذى قد يفسد ـ من وجهة نظر الوفد الفرنسى ـ العلاقات الايطالية الفرنسية، وهكـذا تم منع الـوفـد الجزائرى من الحضـــور عن طـريق قـوة من الفرســان الايطاليين. وما أن وصلـت أخبار استبعاد الـوفد الجزائرى إلى الوفود العربية الأخـرى حتى اجتمعت هذه الوفود فى اجتماع مغلق أسفر عـن تهديدهـا بالانسحاب مـا لم يتم السماح للـوفد الجزائرى بالحضـور، ومرة أخرى كـان الفوز من نصيب العرب وسُمح للـوفد الجزائرى بـالحضور؛ وفى اليـوم التالى انضم الجزائريـون وانسحب الفرنسيون.

وهكذا بدا الأمر وكأن العرب أصبحوا سادة الموقف. أما البروفيسور «لابيرا» بعد هذه الأحداث السريعة والمتوالية فقد أصيب بالانهيار. أما المستعرب الفرنسى مسيو «ماتينيون» فقد أصابه الارهاق الشديد نتيجة محاولاته المستميتة لانجاح المؤتمر؛ وكان هذا الرجل يتوق لأن يرى شهر رمضان يتزامن مع الصيام اليهودى والصيام المسيحى. لقد مات هذا الرجل شهيدا لقضية المصالحة بين العرب واسرائيل.

استمر فى المؤتمر عدد من الفرنسيين ذوى الأصول العربية وكذلك الايطاليون. وأدار مولاى حسن أعمال المؤتمر بكفاءة وثبات تكشف عن خبرة وحنكة، واستطاع أن يتخلص من كل العقبات والمشاكل التى اعترضت المؤتمر، هذا بغض النظر عن بعض الجدل الساخن الذى حدث بين الجزائريين، ومسيو بيسانى الذى رفض الانسحاب مع الوفد الفرنسى. كما أن مؤيدى الحبيب بورقيبة كانوا ينظرون بعين الشك لوفد القاهرة. لقد كان الجو حقا يشوبه القلق رغما عن كل شىء.

إلا أن شيئا مهما يستحق الذكر فى هذا السياق. ذلك أنه بينما كنا نشاهد عرضا للفروسية اقترب منى أحد الصحفيين اليهود ــ وكان يعيش فى باريس ــ قائلا: «يوجد هنا شخص قطع مسافة كبيرة على أمل أن يتحدث معك. هل تتفضل بلقائه؟ فأجبته: بالطبع. وكان هذا الرجل يدعى «آجان سوكولوفسكى» الذى قدم نفسه على أنه أحد الضباط المساعدين للجنرال «ديان». وكان آجان من أصل بولندى وكان قصيرا وأعرج نتيجة اصابة حربية. وكان لى معه حديثان طويلان. وكان يتوق لمعرفة وجهة نظرى وآرائى بخصوص الحرب بين العرب واسرائيل، كما أخبرنى بانطباعاته عن الضباط المصريين الذين أخذوا كأسرى حرب بعد حربى ١٩٤٨ و١٩٥٦ وذكر لى أن

ضباط جيش فاروق كانوا أكثرا التزاما وأكثر تدريبا من الذين خلفوهم. فقد كانوا ثابتين فى التحقيقات والاستجوابات التى أجريت معهم، وكانوا اجمالا أكثر حنكة من ضباط عبدالناصر الذين أسروا عام ١٩٥٦. فضباط عبدالناصر — من وجهة نظر آجان ـ كانوا مُسيسِّين، وكانت دوافعهم وبواعثهم مضطربة، كما كانوا سريعى الانهيار تحت ضغوط محققى جهاز المخابرات الاسرائيلى.

وعبر سوكولوفسكى عن عدم ارتياحه لاستمرار الحروب بين مصر واسرائيل الشىء الذى أدى إلى تنشئة جيل من الشباب العدوانى والذى تمكنت فكرة الحرب من أذهانه. وكان يعبر عن خوفه على ابنه الذى كان يقترب من سن التجنيد، وكثيرا ما كان يتساءل كيف ستنتهى هذه الحرب.

وأحيانا كنت أقول له بسخرية يشوبها بعض المنطق أن التجارب أظهرت أن الهزيمة العسكرية لا تخلو من بعض الايجابيات فدولة مثل ألمانيا عندما خسرت الحرب بدأت فى اعادة بناء نفسها وأصبحت أكثر قوة حتى من خصومها السابقين، ولعله قد يكون فى غير صالحنا نحن المصريين لو استسلمت اسرائيل لنا. فالعالم كان سيقدم لها من كل جهة مساعدات اقتصادية تؤدى إلى تقوية نظامها الاقتصادى. وما ذكرته لآجان على سبيل المداعبة وصل إلى السلطات فى القاهرة فى الوقت المناسب.

● الفصل الســابع ●



لا شيء غير الحقائق

فى لحظـة كتابتـى لهذا الفصل تأخذنـى الذاكـرة إلى واحد وخمسين عامـا ارتبطت فيها ارتباطـا وثيقا بمهنة الصحافـة؛ فقد بـدأت العمل بها عـام ١٩٤٥ فى وظيفة مـراجع صحفى وهى مهمـة جعلت منى المحـرر الفعلى لاثنتين من الجرائد الصبـاحيـة التى كـانت تصـدر فى القاهرة وقت الحرب احـداها كانت تصدر بـالانجليزية والأخرى بالفرنسية.

وفى عـام ١٩٤٦ أسهمت فى بـدايـة عمل المكتب الصحفى المصرى، وكان المسئولون عن بـداية العمل فى هـذا المكتب هم ثلاثـة: أولهم أنا وشخـص آخر مسيحى وثالث يهودى، فكنا بذلك شركاء عمل واحد على غـرار شعـار حسن ومـرقص وكـوهين. وشريكى المسيحى كـان جيفـرى غالى وكـان سيـاسيا قبطيـا حـاذقا من أصل أرستقـراطى، وشريكى اليهـود كـان «بيرتو فـارحى» وهـو صحفى يهودى مصرى ينحدر من عائلة عاشت فى القاهرة لفترة طويلة.

وبعد نهايـة الحرب التحقت بسكرتاريـة الجامعة العربيـة وهناك طلب منى ـ بالاضـافة إلى مهـام أخـرى ـ تأسيس المكتب الاعـلامى الصحفى فقمت بهذه المهمـة وأديتهـا على أكمل وجـه حتـى تـركت الجامعة العربية لأقوم باصدار مطبوعاتى الخاصة وذلك عام ١٩٥٤.

وفى الليلـة التى انـدلعت فيهـا حـرب ١٩٥٦ كنت أعمل مـراسـلا لجريدة «الديلى اكسبريس» اللندنيـة وقمت بتغطية الهجوم البريطانى على بورسعيد.

ومن سبتمبر عـام ١٩٥٤ حتى ينـايـر ١٩٦١ كنت أعمل محررا وناشرا للجـريدة المصرية الاقتصاديـة السياسية وهى جريـدة دولية تصدر بـاللغة الانجليـزية. واكتسبت هـذه الجريدة ذيـوعا كبيرا كما اعتبرت أشهر وأنجح جريدة من نوعها صدرت فى مصر فى ذلك الوقت.

The Egyptian Economic & Political Review — Issue No 1, September 1954, page 9

The Way Ahead

Message of Lt.-Col. Gamal Abdel Nasser

Those who think that the Revolution of the Egyptian Army on July 23rd had for its object the overthrow of a corrupt monarchy and a change in the regime, are mistaken. The main object of the revolution was to raise the standard of living of the bulk of the Egyptian people.

The regime had to be changed because those who had been in power for so many years had always thought more of themselves and their Party than of the interests of the people.

To give only one example: in 1897 the cultivated land of Egypt was 5,047,000 acres; the population numbered 9,715 000. Fifty years later the population had doubled (19,022,000) whereas the cultivated area had increased by only 14%. The consequences of such irresponsible policy are not hard to imagine.

Much the same can be said about industry, commerce and indeed all other sources of national income, not to speak of the lack of planning or of scientific study with which national projects were improvised.

Let me speak very briefly about what the Revolution has done in economic, social and political fields.

I

Two months after the Revolution the Land Reform Law was passed: many other projects too were by then on the way to being carried out. Twenty acres of desert are now reclaimed every day! Produce from the new Province of El-Tahrir, created in the heart of the desert, can now be seen in the streets of Cairo. Plans have been prepared for the cultivation of some 2 million acres in the next 20 years. The necessary water will not be lacking. The project of the new High Dam above Asswan is now being carried out and we hope that this will be completed within less than ten years. At the same many important industries are in course of creation.

We know that we cannot live in a state of isolation: we must co-operate with all friendly nations. Already, a new Companies Law has been passed (No 26 of 1954), and another on Investments was promulgated in 1953 (Law No 156). Moreover, several measures have been taken to improve Commerce and Exchange. In every phase of life there has been reform, or at least study in view of reform. Missions have been sent to explore for petroleum and metals in the desert regions. In a few years we hope to produce our own steel and to have for the first time an Egyptian heavy industry.

II

In the social field the Permanent Council of Social Services has made a thorough study of all Public Services. Plans have been drawn up, and Collective Units will be equipped to deal with groups of 15,000 inhabitants. They will act at the same time as rural industrial schools. Before long each unit will be self-contained: the first one is now being built and expects to begin work in a few weeks.

III

Within a month or two a National Assembly will meet, and by the end of the Transitional Period we shall have a sound democratic life.

Everybody now can see that the country is enjoying a state of stability, consolidated by the ever-increasing inflow of foreign capital.

We were determined to resolve the Suez Canal problem. Egypt being a free State, we felt that no foreign troops should remain in her territory against her will.

I am glad that Britain and Egypt came to the agreement announced on July 27th.

-o-

The appearance of this Review is indeed opportune, in fact, necessary. Our friends abroad need to know what is going on in Egypt: they want to follow our economic activities and to be informed as to our business life.

The contents of this first edition show an accurate grasp of affairs in a great variety of fields.

I hope that the "Commercial and Industrial Research Organization" will succeed in bridging the gap between the Nile Valley and business circles all over the world.

I am glad to note that the editor has promised me that nothing will be published in the Review except the facts. What we want is not propaganda for Egypt: we only want accurate reports about the development of our country to be known.

Gamal Abdel Nasser

صـورة من المقال الذى شـارك به البكباشى جمال عبد الناصر فى العـدد الأول من الجريدة المصرية الاقتصادية السياسية والذى صدر فى سبتمبر عام ١٩٥٤

وبعد مغادرتي السجن تمكنت من السفر إلى ألمانيا الغربية حيث عملت كصحفي غير متفرغ فى وكالة الصحافة والاعلام التابعة للحكومة الألمانية. كما تم اعتمادي كمراسل أجنبي فى الحكومة الفيدرالية فى بون.

وأثناء اقامتي فى بون عملت كمراسل صحفي لجريدة «طهران كيهان انترناشيونال»، وجريدة «أفريكاسيا» الباريسية، وكذلك المجلة الفرنسية العريقة «لاتيكنيك مودرن».

لقد أسعدني الحظ بالعمل فى العديد من المناصب الصحفية فقد عملت مستشارا اعلاميا حكوميا ومراجعا وناشرا كما عملت مراسلا أجنبيا ومحررا.

ومن خلال هذه الخبرة متعددة الجوانب أمكنني أن أخرج بنتيجة مؤداها أن تأثير العمل الصحفي وحقائقه يكمن فى التزام الصحفي بمعايير الدقة والأمانة فى نقل الخبر هذا فضلا عن الموضوعية، فالتحيز أصبح مرضا متوطنا فى هذه المهنة، كما أصبحت الدعاية وسيلة لاخفاء الحقيقة وغسل المخ هذا فضلا عن كونها سلاحا فى يد الديكتاتورية العمياء.

لهذه الأسباب لم أبد استعدادا من جانبي عندما طالبتني الحكومة ممثلة فى شخص الدكتور حسن أبو السعود تأسيس خدمة اعلامية حكومية عام ١٩٥٤، فقد كنت أفضل أن أقوم باصدار جريدة جادة تتوجه برسالتها إلى صانعي القرار والمفكرين فى العالم المتحدث باللغة الانجليزية، والقارىء فى هذه الدول يندر أن يتأثر بالدعاية الرخيصة.

وهكذا قدمت اقتراحاتي لاصدار مثل هذه الجريدة، وذكرت للمسئولين أنه توجد شروط مبدئية يجب احترامها قبل بدء العمل فى هذه الجريدة، وأول هذه الشروط هو الثقة.

والثقة بالنسبة لى كانت تعني أنه لا يجب أن أخضع للرقابة وأنه

بامكـان السلطة الثقة بى باعتبارى رقيبا على ما أنشره. كما طلبت بأن أكـون حـرا فى تقـديم المعلومـات الـدقيقـة عن مصر دون اللجـوء إلى المبالغـة التى كانت تتسم بها وسـائل الاعلام المصريـة فى ذلك الوقت. كما طـالبت بأن يسمح لى بتقـديم نقد بنـاء اذا تطلب الأمـر ذلك. كما أخبرت المسئولين أنـه لا يمكننا اقنـاع القارئ الأجنبى بأننـا مصدر قيم للمعلومات الموضوعية دون أن نفى بهذه المعايير السابقة.

وأود أن أؤكد هنا أن عبدالنـاصر تفهم تماما مطالبى والمنطق الذى أتحدث به كما كان متعاطفا تماما مع وجهات نظرى. لقد كان الرئيس عبدالنـاصر مازال فى أيـام حكمه الأولى، وكانت مشـاعره واتجاهـاته ايجابية، ولم يكن قد تعرض بعد لمكـائد المحيطين به، فلم تظهر عليه فى هذه المرحلة الأولى المخاوف والتشككات المميـزة للبارانويا والتى ألمت به فى سنـواته الأخيرة. ولكنى سأظل دائما ممتنـا له لقبـوله أن يكتب أول مقال موقع بـاسمه فى جريدتى، وفى نهاية مقالـه كتب عبدالناصر هذه الكلمات:

«يسعدنى أن أشير إلى أن محرر الجريدة قـد وعدنى بأنه لن ينشر إلا الحقائق. نحن لسنـا فى حاجـة إلى دعاية لمصر؛ لكن مـا نريـده هو تقديم معلومات دقيقة عن التطورات الحادثة فى بلادنا».

جمـــال عبـــد النـــاصر

لقد حاولت طـوال السبع سنوات ـ وهى كل عمـر هذه الجريدة ـ أن أكون دائما على هذا المستوى. ولست بحاجة إلى القول أن ذلك أدى بى إلى معـاداة العديد مـن الشخصيات كما جلب علىّ عملى بـالجريدة كراهية جهاز الدعاية النـاصرى ممثلا فى شخص القائمقام عبدالقادر حاتم الذى كان من الطبيعى أن يحنق على جريدة حرة تتمتع بالحماية المبـاشرة من الـرئيس. لقـد كـان مـا يتعب القـائمقـام ـــ على وجه

الخصوص هـو أن جريدتي ـ من بين كل الجرائد التى تصـدر بلغات أجنبية فى مصر، وبعضهـا كان يتولى اصـداره عبدالقادر حـاتم كانت الأكثر ذيوعا والأكثر طلبا من قبل السفارات المصرية بالخارج.

يتطلب اصدار جـريدة أو مجلة اعدادا خـاصا كما يتطلب قبل ذلك كلـه فريق عمـل كفء ولحسن الحظ فقد تصـادف فى ذلك الـوقت أن أغلقت جريدة المصرى الوفدية لأسباب سياسية، وهذا يعنى أن طاقما كـامـلا من الصحفيين الأكفـاء أصبحـوا بـلا عمل كما لم تجرؤ أيـة جريـدة على ضمهم إليها خوفـا من السلطة. منحنى ذلك فـرصة ضم مجموعة مـدربة من الصحفيين من بينهم مرسى الشـافعى الذى كان يحرر جـريـدة المصرى فأصبح محررا للجـريـدة، وكـذلك المحـرر الاقتصـادى للمصرى أحمد سليم حسن (ابن الأثرى البـارز) أصبح محررنا الاقتصـادى كما انضم إلينا سـامى سـوكا الذى كـان يعمل اداريـا بـالمصرى. كما انضمت زوجتي فـرنسيس إلينـا حيث عملت محررا اداريـا. كما انضم إلينـا كـذلك محام أمـريكى شـاب يـدعى «جوستين كـولين»، وشابـة أمريكيـة هى كاتى مـايكل. لقد كنـا بحق فريقا متحمسـا، ولم نضع فى حسباننا ساعـات عمل محددة، فقد كنا نواصل الليل بالنهار فى العمل دون انتظار لأى مكافأة. وكان المسئول عن الحسـابـات والجانب المالى مصرفى يـونانى يـدعى أجـاسمنـون مانديكاس الذى أفادنا كثيرا بخبرته ومواهبه.

وهكـذا انطلقت جريـدتنـا بهذه الروح الـدؤوبـة وحققت نجاحـا وتقدما كبيرا. وكـان عدد النسخ التى يتم توزيعها شـهـريا من مجلتنا ما يقارب العشرين ألـف نسخة وهى كمية ضخمة لجريدة مـن نوعية جريدتنا. وقد خصصت الأعداد الأربعة الأولى لموضوعات محددة مثل البترول، والبنوك، والتنمية الصناعية، والـزراعة. كما احتوى كل عدد على وثائق واحصـائيات كان من الصعب تـوافرها فى جريـدة أخرى.

فكنــا دائما ما نلجأ للمكتبـات ومعاهــد البحوث التى يمكن أن تمدنــا بالمعلـومات والوثائق. كما لاقت المادة السيـاسية فى جريدتنــا رواجا أيضا. لقد كنــا فى ذلك الوقت مصدرا قيما للمعلومـات ووجهات النظر والاتجاهات الخاصة بالمصريين.

وحيث أن كل الاصــدارات كان لابـد أن يكون لها تــوجه سيــاسى معين فقد كان توجهنــا هو ابراز صورة الليبرالية الاسلاميــة التقدمية والمستنيرة.

كما كانت القضيــة الفلسطينية واحدة من القضايا الــرئيسية التى كانت تشغلنــا. وهنا لابد من الاشــارة إلى أن جريدتنــا ظهرت فى وقت كان العرب فيه قــد خسروا الحرب الاعلامية مع اسرائيل التى استغلت فرصة الاعلام العربى المتردى وغير الناضـــج لصالحها فابتدأت تقدم للعالم صورة للعرب تتسم بالعدوانية والهمجية.

وتطلب هذا الأمر من كل جــريدة عربية مسئولــة ومحترمة محاولة اصلاح مثل هذه الصورة؛ وهــذه هى المهمة التى قبلنا الاضطلاع بها. وعند ارسائنــا للقواعد التى يمكن أن توجه العمل فى جــريدتنا أصررت على أن يكون توجهنـــا إلى إنهاء الأحداث التراجيدية متسما بــالسخرية والــروح النقــديــة، وهــو الشــىء الــذى اتبعنــاه فى تنــاولنــا لمأســاة الفلسطينيين؛ فأى متفحص مــدقــق لقضيــة الفلسطينيين لا يمكن أن يرى فيهم معتدين بل هم المعتدى عليهم، وكثيرا ما كان يسعد المرء أن يقــابل العديــد من اليهــود الموضوعيين الــذين يقبلــون هذه الحقيقــة والذين فضــلا عن تعاطفهم مع العــرب كانــوا يظهرون ضيقهم بتلك النزعة النازية لدى اسرائيل. ومن بين هؤلاء اليهود أشير إلى «رابى إلمر بيرجر»، وألفريد ليلينثال واللــذين دأبا على العمل لصالح السلام بين العرب واليهود، واللــذين كانا يسعيان لتقديم صورة صــادقة لليهود غير تلك الموجودة فى الذهن العربى.

أتذكر أن كـان لى حديث مع أحد اليهود الأمـريكيين وكان اشـتراكيا بـارزا؛ وفى حديثـه معى أخذ هـذا الـرجل يجادلنى ويقدم لى مـا يبرر وجود اسرائيل بطريقة لم أسمعها من قبل.

وكان سـؤالى له: بما انك اشـتراكى كيـف يتسنى لك أن تؤيـد دولة تمارس تمييزا عنصريا ودينيا؟ وبعـد نقاش طويل قال: «أتفق معك فى ذلك، فلكـونى اشـتراكيا أرفـض التمييز، ولكن تـوجـد عدة اعتبـارات متشـابكة علينـا النظـر فيها فيما يتعلـق بهذه القضية، فأنـا أرى أن النزعة ضد السامية لم تنته تمامـا من العالم ولا يفوتنا هنا ذكر ألمانيا ومـا فعلتـه ، فتحت التـأثير السيىء لهتلـر تحول المجتمع الأوروبى بأكمله إلى مجتمع عصـور وسطى جل غايتـه اضطهاد اليهـود، وهذا يجعلنى أخلص بأن هذا العداء وهذا الاضطهاد قـد يتكرر مرة ثانية فى أى مكان، بل وليس هـذا مستبعدا أن يحدث فى أمريكـا ذاتها حيث بدأ يظهر فيها اتجاهات ضد الساميـة. وعلى هذا الأساس فوجود اسرائيل يعنى لى ولعائلتى وأقـرانى من اليهود مكـانا نلجأ إليه اذا مـا تكررت هذه الاضطهـادات. ومن ثم فاسرائيل بـالنسبة لنا هى مكـان النجاة، وهذا ما يجعلنى رغم قناعاتى الاشـتراكية أؤيد وجود دولة اسرائيل.

وقد قمنا فى جريدتنا بعمل تغطيـة كاملة للمشكلة اليهودية اتسمت بـالحيـاد والموضوعيـة. وفى عـدد خـاص قمت بنشر سيرة مختصرة لتيودور هيرتزل كما قدمت تحقيقا موضـوعيا عن السياسـة الداخلية الاسرائيليـة. وقـد أشير فيما بعـد لهذه الموضـــوعيـة التى اتسم بها التحقيق فى مجلـة «جيويـش أوبزرفـر» حيث أشـاد محررها «جـون كيمش» بالموضـوعية التى تتسم بها جريـدة قاهريـة والتى يفتقرون لها للأسف فى اسرائيل . وقـد أسعدنى هذا كثيرا اذا أننا بمـوضوعيتنا وحيادنا أسهمنا فى تغيير صورة العرب لدى اسرائيل.

لقـد كان مجتمع القـاهـرة فى الخمسينيـات والستينيات مجتمعـا

عجيبا وكارزميا بدرجة كبيرة. وكانت العلاقات المصرية الأمريكية فى تلك الفترة فى أحسن حالاتها حيث كان لكيرميت روزفلت ومايلز كوبلاند وأمريكيين آخرين اتصال مباشر بالرئيس عبدالناصر كما كانت المعونة الأمريكية تتدفق على الاقتصاد المصرى، ولاشك أن مجتمعا بهذا الشكل أفرز العديد من الشخصيات المثيرة سواء المصرية منها أو الأجنبية. ومن بين هؤلاء الذين أتذكرهم «كيم فيلبى» الذى كان معروفا عنه أنه عميل للمخابرات البريطانية كما كانت له علاقات قوية مع الروس. وكان «فيلبى» رجلا هادئا وحذرا.

ومن بين الذين عرفتهم أيضا فى تلك الفترة الكولونيل «سليد بيكر» مراسل الصنداى تايمز الذى كان يزورنى بانتظام اسبوعيا ليحصل على مادة تساعده فى كتابة مقاله. وكان الكولونيل «سليد بيكر» أحد أعضاء الملحقية العسكرية البريطانية فى القاهرة قبل عمله كمراسل صحفى. ومن بين الأجانب الذين تعرفنا عليهم أيضا «فرانك كيرنز» وزوجته الانجليزية الحسناء «جوين» وكان فرانك مراسلا للـ C.B.S فى القاهرة، وكان رئيسا سابقا لطاقم المخابرات المضاد بلندن (CIC) والذى كان مرتبطا ارتباطا مباشرا بمراكز القيادة.

أما العائلة الملكية فقد انحصرت فى مجموعة صغيرة من السيدات كبار السن وأميرات تم الاستيلاء على ممتلكاتهن. أما معظم الأمراء فقد اختفوا من القاهرة حيث مات بعضهم، أما الآخرون مثل الأمير عمرو ابراهيم والأمير محمد على ابراهيم والأمير سعيد طوسون فقد استقروا فى فرنسا أو سويسرا.

وفى القاهرة استقر الأمير حسن حسن الذى كان شابا وسيما وعلى درجة عالية من الثقافة، والذى كيَّف نفسه مع الموارد القليلة والمتواضعة التى تركتها له السلطات. وكان مثل هؤلاء الذين تبقوا من عهد فاروق يلقون أسوأ معاملة. وعلى الرغم من أن طبيعة المصريين

تتسم بالانسانية والرحمة فقد لقى مثل هؤلاء الأمراء على يد موظفى الحراسة العنت والمعاملة السيئة. لقد حُرم هؤلاء الأمراء من حقوقهم السياسية، كما أصبحوا بكل المقاييس مواطنين من الدرجة الثانية وهم سليلو عائلات قدمت الكثير من الخدمات لهذا البلد. وعلى الرغم من كل ذلك فقد قاوموا كل هذا العنت بكبرياء لا يملك المرء إلا أن يحترمه.

ولنعود إلى جريدتنا التى لقيت ـ فضلا عن أوروبا الغربية ـ استحسانا كبيرا من الأوروبيين الشرقيين. وكان لنا العديد من الأصدقاء المقربين من الاتحاد السوفيتى الذين كانوا يزوروننى فى مكتبى ويقولون لى أنهم يعتبروننى «مارك توين» مصر. وكانوا يظنون انى أخفى تعاطفا مع الشيوعية؛ ولكنى أخبرتهم ذات مرة أننى لا أميل لأن أكون عبدا لأى مذهب سياسى كما اننى لم أكن لأتقبل الجمود الذى كانت تتسم به الشيوعية. والغريب فى الأمر أن رأيى هذا الذى ذكرته لهم لم يكن ليغيرهم من جهتى فبقينا أصدقاء؛ وكان أحد أصدقائى الروس المقربين هو «ديميترى ستيفانكين» الذى كان يعد أول سكرتير فى السفارة السوفيتية. وأتذكر غضب ستيفانكين ذات مرة عندما أتى البولشوى إلى القاهرة تصاحبه الباليرينا اللامعة جالينا أولانوفا فاستضافتهم وزارة الثقافة فى فندق من الدرجة الثانية؛ وحينئذ طلبت من ستيفانكين أن يعطينى الفرصة للتحدث مع وزير الثقافة الذى شرحت له قدر فرقة البولشوى وقدر «جالينا أولانوفا» الذى يجعل العديد من فنادق أوروبا تتنافس على أن تجعلها تقيم فيها؛ ولكن حديثى مع وزير الثقافة وقتها انتهى بأن قال لى. «ولكنها فى نهاية الأمر ليست إلا مجرد راقصة»!

أما أحد أسوأ مظاهر الحياة فى القاهرة آنذاك فهو الوجود المبالغ فيه للبوليس ورجال المباحث الذين كانوا دائما فى حالة ترقب. وكان

من الواضح أن السلطة كانت تضاعف من شكوكها حول أى شخص كما كانت فى حالة ترقب وتوجس دائم من أية مؤامرات ممكنة؛ وهكذا بدأت تظهر البارانويا بكل ملامحها.

وفى هذا المناخ بدأت بنية البيروقراطية تنمو وتزدهر وكان كل هدفها هو الحفاظ على الأمن والبيروقراطية بهذا الشكل ظهرت وتضخمت نتيجة لسيطرة فكرة «اللا أمن». وأدت سيادة هذه الفكرة لدى السلطة إلى وضع المجتمع المصرى فى دائرة مغلقة لم يكن ليتخلص منها إلا بالتخلص من جهاز الأمن أو اصلاحه.

ولعل التوجه الأمنى الشديد فى مصر مازال مرضا متوطنا يحتاج إلى سنوات عديدة من الاستقرار والأمان حتى يمكن التخلص منه. وحتى يومنا هذا وقد أصبحنا فى عصر الأقمار الصناعية مازال محظورا على المصريين تصوير كبارى النيل ومواقع أخرى.

واذا عدنا للحديث عن جريدتنا لابد أن نشير إلى أننا كنا نضع فى اعتبارنا القراء الأمريكيين فمن ضمن الترتيبات التى كانت بيننا وبين وزارة الشئون الخارجية وقسم الاعلام أنه كان يجب علينا أن نبيع ٢٠٪ من عدد النسخ التى نصدرها للحكومة. وكانت هذه الكمية توزع فى الخارج عن طريق السفارات والقنصليات ومكاتب الاستعلامات وذلك حتى نعطى الفرصة للدول الأخرى أن ترانا بشكل أفضل. وكنت دائما على يقين من أن اصدار أى مجلة له العديد من الامتيازات. إن مجلة من نوع مجلتنا تمثل صوتا يسمعه العالم كله. وقد تصل الآراء التى تحملها هذه المجلة إلى رجال السلطة والنفوذ بالخارج فتؤثر على اتجاهاتهم نحونا.

ونحمد الله إننا نجحنا بسرعة مذهلة، وكان دائما هدف فريق العمل وغايته الوصول إلى مدى واسع من القراء. وهكذا بدأت السفارات الأجنبية تنظر إلينا باعتبارنا مجلة جادة. وكان بعض

القراء يظن أن بعض المقالات الرئيسيــة غير الموقعة تكتبها شخصيات حكـومية، بل إن بعض القــراء أعتقـدوا ان الــرئيس نفسه كــان يكتب بعض هذه المقالات.

أضف إلى أهميــة المقالات فإن معــرفة الـدبلوماسيين الأجـانب أن جـريـدتنا كـانت تصل إلى عـواصم بـلادهم جعلهم أكثـر تيقظـا فى مراقبتهم لمجـريات الأمــور فى بلادنــا، وهذا كــان فى صالح المصريين. فقبل ذلك كانت السلطات فى الدول الأجنبية تعتمد فى معلوماتها على ما يقوله الـدبلوماسيون الأجانب وليس على أية مصــادر مصرية. وكانت هذه هى الطـريقة الوحيـدة لدى هـذه السلطات اذ لم تكن مصر تملك وسيلة تعبر بها عن اتجاهــاتها. ولكن معرفــة الدبلومــاسيين الأجانب بــوجود اصــدار مصرى يصل إلى رؤســائهم فى بلادهم جعلهم أكثــر متابعــة وتطويرهم لعــلاقاتهم خــارج النطاق الدبلــوماسى. وأود أن أعطى مثــالا لــذلك بمقــال كتبتــه فى عدد ابــريل عــام ١٩٥٩ بعنـوان «دبلوماسية نادى الجالية»، وكــان هذا المقال عبارة عن مسح لسلوك الدبلوماسيين الأجانب الذين كــانوا يتآلفون ويندمجون فقط بأعضـاء جالياتهم فى نــوادى هذه الجاليات؛ وقد أثار هذا المقــال غضب العديد من سفراء الدول الأجنبيــة فى مصر الذين شـعروا أن هذا المقــال موجه إليهم شـخصيا.

أمــا فيما يتعلق بــالقضايــا السيــاسيــة التى لم تكن تخص مصر بشكل مباشر فقد تبنينا أيضا اتجاها محـايدا. فإذا نشرنا مقالا يعكس وجهة نظر أحـد الأطراف فى قضية ما، كــان لزاما علينا دعـوة الطرف الآخر ليعبر عن وجهة نظره. وهذا مــا حدث عند نشرنا لمقالين يتعلقان بــا لمشكلــة البــاكستــانية. فقـد اتصلت بى السفــارة البــاكستــانيــة بخصــوص كتــابــة مقــال يعكس وجهـــة نظـرهم ازاء مشكلتهم مـع أفغانستــان والمتعلقة بــا لمنطقة المتنازع عليهــا والتى كانت بــاكستان

ترى أنها تخصصها بينما كان الأفغان مستقرين بها. وتم فعلا اعداد المقال عن طريق المكتب الصحفى التابع للسفارة الباكستانية، ويبدو لى أنهم كانوا يعتقدون أنه لا يمكن لأصحاب وجهات النظر المخالفة لهم أن ينشروا مقالا ردا على مقالهم. ولكن التزاما منا بسياسة الجريدة طلبنا من بعض مُحكمى مصر البارزين كتابة مقال يحمل وجهة النظر الأخرى، ونشر هذا المقال ولكننا بعد ذلك كان علينا أن نتحمل غضب الملحق الصحفى الباكستانى وبنفس التوجه نشرنا مقالات عن المشكلة بين الصومال واريتريا. لقد كنا بالفعل نتمتع بحرية كاملة فى نشر ما نريده، وهذه الحرية مُنحنا اياها من خلال تأييد الرئيس عبدالناصر لنا.

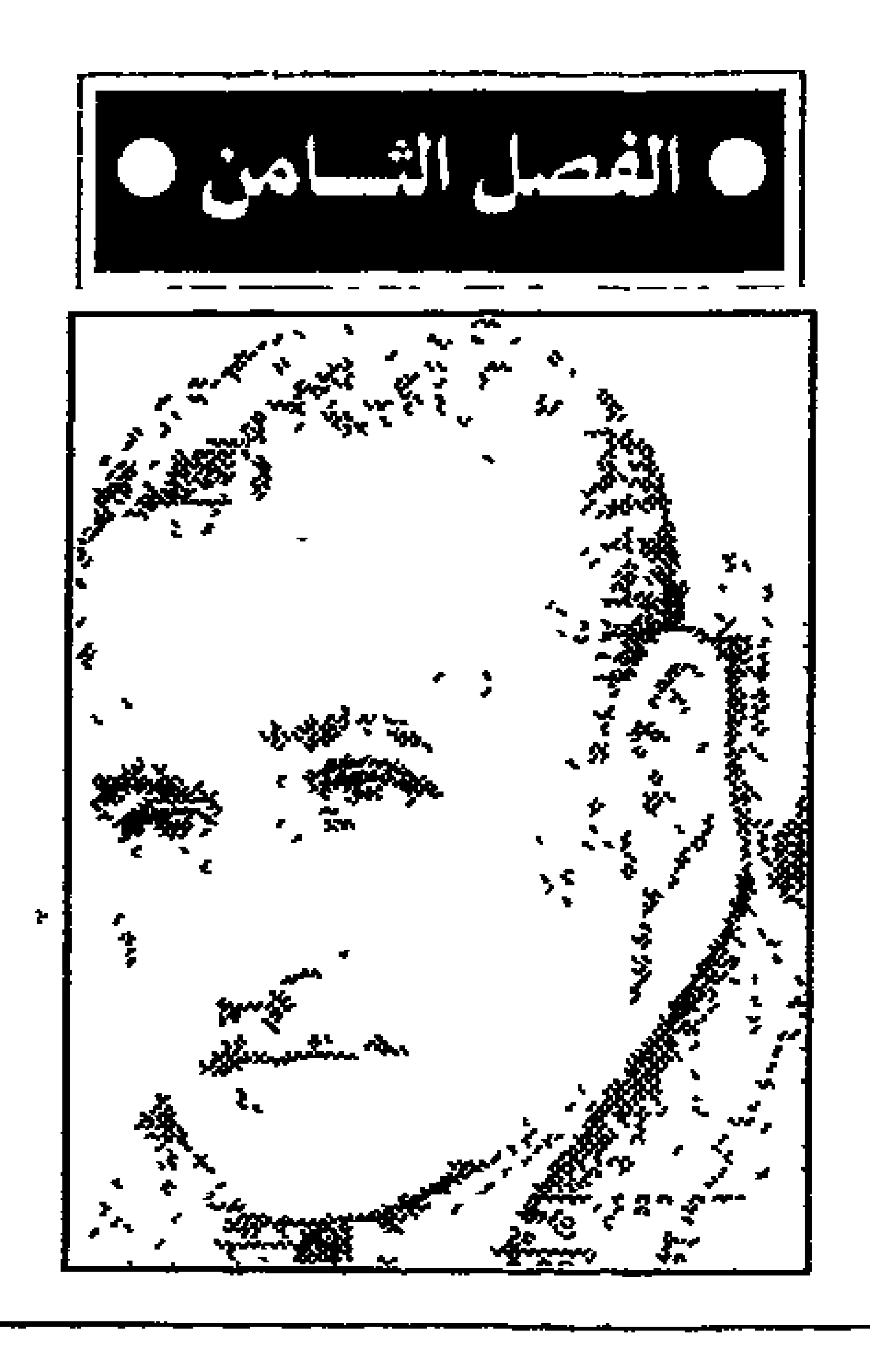
هناك حدث آخر يشير إلى نجاح وتأثير جريدتنا كمصدر للمعلومات ووجهات النظر. وكانت البداية عندما تلقيت رسالة عاجلة من مراسل الجريدة بالأمم المتحدة «سيمون مالى»، والذى ذكر لى فيها أن موظفين من وزارة العدل الأمريكية قاموا بزيارته وأخبروه بأن مكتب التحقيقات الفيدرالية يبحث حالته، وذلك لكونه صحفى أجنبى غير مسجل ويمثل جريدة حكومية مصرية. واذا ثبت عليه ذلك بالفعل كان سيواجه عقوبة السجن بالاضافة إلى غرامة كبيرة.

ولحظة تسلمى لهذه الرسالة توجهت مباشرة إلى رئيس الجهاز الاعلامى المصرى فى ذلك الوقت الذى أبدى غضبه الشديد عندما عرف القصة وقال: «اذا ما أساءوا إلى رجلك فى نيويورك فسوف نقوم بالقبض على مراسلى صحف النيويورك تايمز ومجلة التايمز والنيوزويك». واتصلت بعد ذلك بالدكتور مراد غالب المستشار السياسى للرئيس الذى رأى أن الدبلوماسية فى مثل هذه الأمور قد تكون أفضل، واتفقنا على أن ألجأ إلى السفير الأمريكى «رايموند هير» الذى أخبرنى بأنه سيفعل ما بوسعه وبالفعل أوفى بوعده. وقد

اكتشفنا بعد ذلك أن السفارة الاسرائيلية كانت مصدر كل هذه المتاعب، فالتحقيقات التى كنا ننشرها عن مجريات الأمور كانت لا تتفق وأهدافهم.

وبعد كل هذا فمن المنطقى أن يتصور المرء أن جريدة بمثل هذا الشكل تقدم خدمات قيمة لبلادها لابد أن يتم تشجيعها ومساعدتها. ولكن للأسف ما حدث كان عكس ذلك هذا رغما عن سجل عملنا النظيف فقد قُبض علىّ وأودعت السجن بتهمة التجسس لصالح اسرائيل.

● الفصل الثـــامن ●



ما العروبة ومن العربى؟

سـألنى جون فيلبى منـذ بضـعة سنـوات قائلا: «من هو العربى؟» وكنت وقتها قد انضممت للجامعة العربية كسكرتير ثـالث. كما كان بعض أصدقـائى من الأقباط يقولون لى دائما، نحن لسنا عربا «لكننا مصريون». ولم يكن لدى حينئـذ رد أجيب به على الأوروبيين من نـوعية «جـون فيلبى» أو على أولئك المنـادين بالانتماء المصرى

الخالص. إلا أنــه من الممكن أن نقــول أنــه على الرغم من عــدم وجــود جنس عربــى خالص أو أمة عــربية خــالصة إلا أننــا لا يمكن أن ننكر وجود العــروبة أو الهوية العــربية بشكل قــاطع. وأود فى طرحى لهذه القضيــة أن أقتبس التعــريف القــانونى للعــربى والموجــود فى لائحــة الجامعة العربية، والتى تقــول فى هذا الشأن. «العربى هو أى شخص يتحدث العــربية كلغته الأم، ويعيش فى أى من البــلاد المتحدثة بــاللغة العربية، ويتعاطف مع تطلعات وقضايا الشعوب العربية». والتعريف هنا تعــريف جغرافى لغوى سياسى، كما يتسم أيضــا بشىء من عدم التحديد.

والســؤال المطــروح الآن: هل هناك جنس عــربى خــالص أو أمــة عربية خالصة؟ لقد حــاولت بعض الاتجاهات السياسية العربية خلق أسطورة أمة عربية خالصة، ومن أبرز هذه الاتجاهات الاتجاه البعثى الــذى حاول ايجاد وتبريــر عقيــدة سيــاسية تــروق للتجمعــات غير المسلمة فى سوريا ولبنان، وفحوى هذه العقيدة السياسية إن الاسلام مــا هو إلا نتــاج للحضارة العــربيــة، وتسمح هذه الصيغــة المناسبــة بالتوحيد بين التجمعات المسلمــة وغيرها فى اطار اتحاد سياسى عربى واحد يستبعد التوجه الــدينى الاسلامى . والبعثية ـ كما أرى ـ ليست إلا خليطا غريبا من البونابرتية والماركسية.

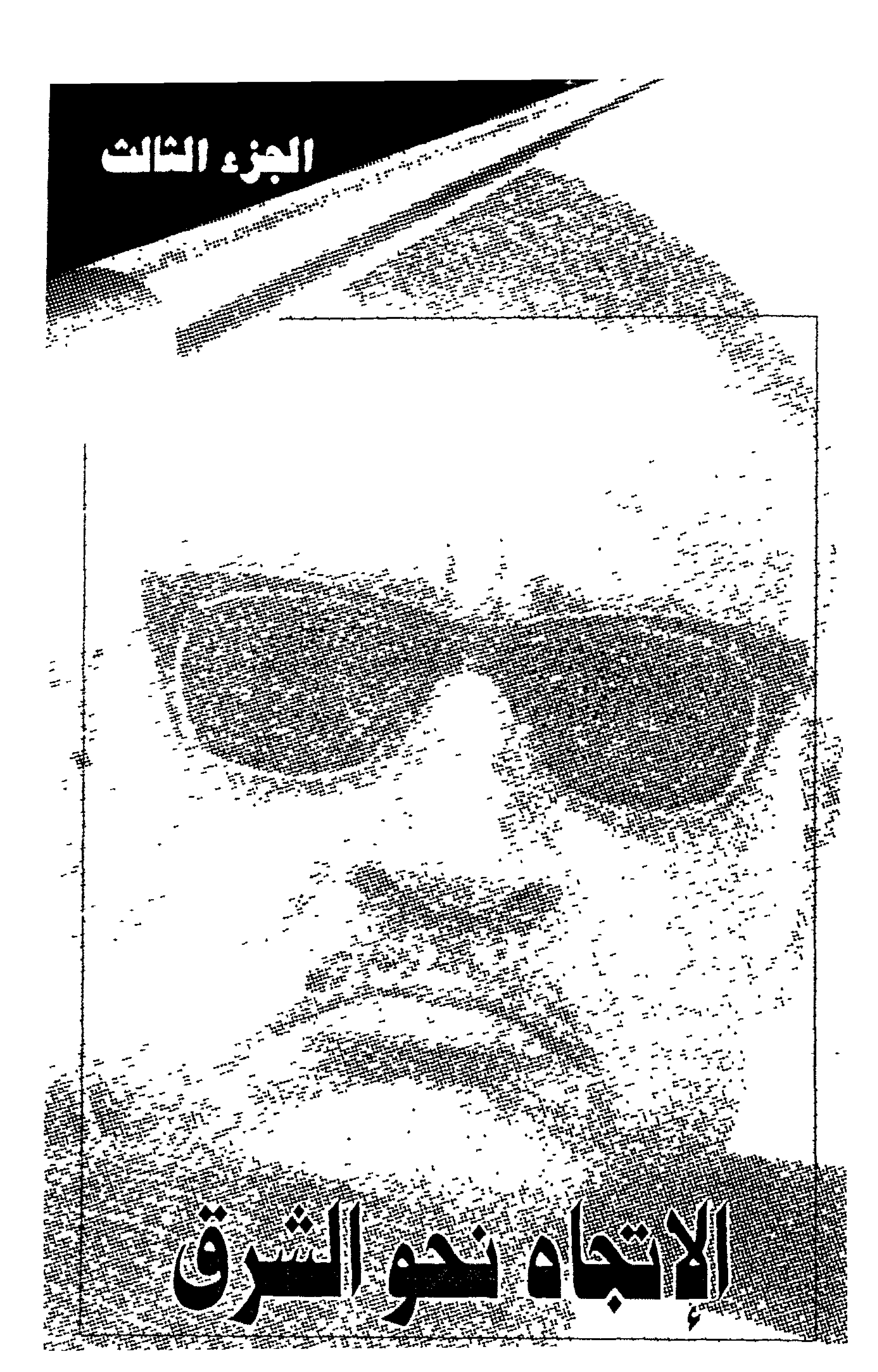
من جهة أخرى توجد علاقة ـ فى تصورى ـ بين الاسلام والعروبة سواء أراد البعثيون أم لم يريدوا. إن الاسلام بــدعوته العالمية الموجهة لكل البشر منح العرب ذلك الوجود العالمى، وجعل للعروبة ذلك التأثير الــواسع فى العــالم. فالامبراطــوريــة العربيــة التى امتــدت من شمال افريقيا حتى أقصى حدود آسيا لم تكن لتــوجد دون الاسلام بأهدافه السامية ودعوته للرحمة، واحترامه لكــرامة الانسان الذى كرمه الله فى القرآن.

لقد كان عزام باشا ـ الذى كان أول سكرتير عام للجامعة العربية ـ

مسلما متدينا وكان من بين أهدافه ذات الأولوية أن يجعل من الجامعة العربيـة شيئا أكبر من مجرد كونها كيانـا سياسيا، لقد شعـر أن هذا الكيـان السياسى لابـد أن تكون لـه رسالـة، كما إن سياسـاتها فيما يتعلق بالحرب والسـلام يجب أن تعكس كافة المبـادىء العظيمة التى أرسـاهـا القـرآن. وظهر ذلك فى رفض الجامعة دعوة الولايات المتحدة بشأن التصـويت على مسألـة مبـادىء محكمات نـورمبرج وتشريع قـوانين عقابيـة فهـذا يتنـافى مع قيم الرحمة الموجـودة فى كل سـورة بـالقـرآن. وفى ذات الوقت أعلنت الجامعة رفضها أيضا لعملية الاستسلام المفروض على ألمانيا آنذاك والذى كان يأخذ شكل الانتقام.

ونفس هذا التوجـه تبنته الجريدة الاقتصادية السيـاسية المصرية بشأن كل القضـايا التى كـانت تثار فى ذلك الـوقت، وهذا مـا ظهر فى دفاعنا عن حقوق الهنود الحمـر وشعب اريتريا وباكستان وغيرها من القضـايـا. وتجلى هذا التوجـه لجريدتنـا فى الصدام الذى حـدث بيننا وبين شركات النفـط. ففى احدى المقـالات الرئيسيـة بالجريـدة (عدد مايـو ١٩٥٩) وُجه النقد للسعـوديين وكانت فحوى المقـال أن موارد البترول قد أفسدت العـرب. وعلى أثر ذلك المقال تم الغاء مـا يربو على ١٠٠ اشتراك فى مجلتنا. وأحب أن أشير هنا أنه على الرغم من احترامنا واعجـابنـا بالملك فيصل إلا أننـا لم نكن نتقبل سلـوك بعض أعضـاء العـائلـة المالكة الـذين كـانـوا ينفقون مـوارد البترول الضخمـة على الملاهى الليلية بأوروبا وذلك مع التجـاهل التام لحاجات دول العالم الاسلامى التى ضربها الفقر.

وهكـذا يتضح من هـذا الفصل خـرافة الكيـان العـربى الخالص المنفصل عن الاسلام، وهو الاتجاه الذى تبنته الجامعة العربية بقيادة عـزام باشـا، وهو الاتجاه الـذى تبنتـه أيضا الجريـدة الاقتصاديـة السياسية المصرية.


الجزء الثالث
الإتجاه نحو الشرق

● الفصل التاسع ●



الثورة تخرب السويس

سأتناول فى هذا الجزء من الكتاب بالنقد والتحليل والحوار واحدة من أبرز مغالطات الدعاية الناصرية، وهى المغالطة التى تجعل من تأميم شركة قناة السويس فى يوليو ١٩٥٦ انتصارا كبيرا لمصر.

من وجهة نظرى يُعد هذا التأميم كارثة قومية كبيرة. فقد كان توقيته سيئا ومتسرعا، وكان القرار

بشـــأن هـذا التأميم قرارا ارتجاليا اتخـذ دون مناقشــة أو دراسـة، لقـد كـان هـذا القـرار مجرد رد فعل غير مـدروس صـادر عن قـائد منفعل ومصـاب بالبـارانويـا أكثر من مجرد كـونه قـرارا مدروسـا ومحسوبا.

وقـد أدى هذا القـرار بعـد ذلك إلى الاصطدام بقـوتين عظميين على درجـة عاليـة من التسليح وذلك فى وقت لم تكن فيه قـواتنا المسلحـة مستعدة، إن مصر مازالت تدفع ثمن هذه الحرب حتى يومنا هذا.

ولابراز وجهـة نظرى سأسـوق فى الفصول التـالية كل مـا يتعلق بهذه القضيـة من النـاحيـة التـاريخيـة والعسكـريـة والسيـاسيـة والاقتصـادية.

وفى هذا السياق أكـرر مرة أخرى أن قرائى ليسـوا مطالبين بقبول كل مـا أقولـه بل جل ما أرجـوه أن تكون أطـروحاتى مـدعاة للجـدل والحوار. واذا قُدِّر لهذا الكتـاب أن يقدم اسهـاما حقيقيـا يثرى منـاخ الحوار الصحى والموضـوعـى بشـأن الأحـداث المهمـة فى تـاريخنـا فأحسبه قد نجح فى احراز الهدف منه.

لا توجد ديمقراطية حقيقية لا يسهم فيها العامة بآرائهم وأفكارهم حتى لو كانت هذه الآراء متناقضة مع آراء القيادة السياسية.

مصر والمسألة الشرقية

فى الثـانى عشر من نـوفمبر عـام ١٤٧٢ تزوج ايفـان الثـانى أمير مـوسكو وولى عهـد روسيـا من «صـوفيا بـاليـولـوجوس» ابنـة أخ امبراطور القسطنطينيـة مايكل التـاسع (١٢٢٥ ـ ١٣٢٠). ونتج عن هـذا الـزواج ـ وهـو الأمـر المتـوقع ـ دخـول روسيـا دائرة الحكم فى القسطنطينيـة اذ منذ ذلك الحين أصبح من خق أمـراء روسيا الادعـاء بأن لهم الحق فى الحكم؛ ونتيجـة لـذلك كان الـروس يشعـرون دائما

بضرورة استبعاد الأتراك من القسطنطينية ثم اعادة بناء الامبراطورية البيزنطية. وكانت الكنيسة الأرثوذكسية اليونانية تؤيد بشدة هذه التصورات التى كانت بمثابة حلم لرجال الدين اليونانيين الذين كانوا يحلمون بالأيام الذهبية للامبراطورية البيزنطية.

وتجلت هذه التصورات فى السياسات التى اتبعها بطرس الأكبر ومن بعده الامبراطورة كاترين الثانية، وهى سياسات كانت تهدف فى مجمعها إلى استعادة الامبراطورية البيزنطية استعادة كاملة.

ففى عام ١٧٧٦ أرسلت كاترين أسطولا بحريا إلى البحر المتوسط لتؤكد من خلاله دور روسيا كحام للتجمعات المسيحية باليونان وللتجمعات اليونانية الأرثوذكسية بآسيا الصغرى والأرض المقدسة. وكانت مصر باعتبارها منفذا بحريا مهما للامبراطورية البيزنطية وباعتبار كون التجمعات المسيحية القبطية بها مأخوذة فى الاعتبار من قبل قياصرة روسيا.

وعلى الرغم من أن استبعاد الأتراك من القسطنطينية يمكن أن يكون فى صالح المسيحية بصفة عامة إلا أن الغرب الكاثوليكى لم يكن ليقبل بعودة الامبراطورية البيزنطية والنهوض بها من خلال الكنيسة اليونانية الأرثوذكسية والروس.

وردود الفعل هذه من قبل الغرب يمكن تفسيرها. فلو فرضت روسيا سيادتها على القسطنطينية وسيطرت على كل المسالك البحرية المؤدية إلى البحر المتوسط فهذا يعنى هيمنة روسيا التامة على الجزء الشرقى من البحر المتوسط.

وبهذا الشكل يتسنى لقياصرة الكرملين تأسيس امبراطورية تضم اليونان وجذورها ومصر والأراضى المقدسة وتكون زعامة هذه الامبراطورية لروسيا القوة العظمى.

وفى عام ١٨١٢ أصبحت بيزنطة من حق روسيا وذلك من خلال

معاهدة تيلزيت التى قام فيها نابليون وألكسندر الأول بتقسيم أوروبا واعادة تشكيل خريطتها.

وبعد «ووترلو» حاولت روسيا القيصرية جاهدة تفتيت الامبراطورية العثمانية.

وفى مثل هذا الوقت تظهر مصر فى الصورة؛ فانتصارات حاكمها محمد على العديدة على العثمانيين دفعت بالروس إلى استثمار الموقف وادعاء مساعدة السلطان العثمانى.

لقد مثلت محاولات محمد على الاستقلال عن الباب العالى تهديدا جديدا للوجود العثمانى فى القسطنطينية. ولكن مادام هذا التهديد آتيا من مصدر اسلامى فلم يكن ذلك مقبولا من قبل القوى الغربية وروسيا على وجه الخصوص. وهكذا نجد روسيا توقع اتفاقية دفاعية مع السلطان العثمانى سمحت لها بارسال أسطول بحرى وقوة عسكرية للدردنيل وذلك فى محاولة منها لاستثمار الموقف لصالحها.

تعددت محاولات الغرب لصد التقدم الروسى نحو البحر المتوسط وبلغت هذه المحاولات ذروتها فى القرن التاسع عشر عندما اندلعت حرب القرم (١٨٥٤ ـ ١٨٥٦)، والتى كانت فيها كل من بريطانيا وفرنسا والنمسا وتركيا ومصر فى حرب ضد روسيا. وكانت القضية الأساسية وراء هذا التصدى هو ادعاء روسيا سيادتها على تركيا وسواحل شرق البحر المتوسط.

أدى اذعان روسيا للانذار الذى وُجه إليها من قبل النمسا فى ١٥ يناير عام ١٨٥٦ إلى التقليل والحد من اندفاعاتها نحو البحر المتوسط.

فى الجزء الأخير من القرن التاسع عشر تركزت جهود الروس بشكل أساسى فى اتجاه تحرير البلقان.

انتهت الحرب التى نشبت بين تركيا وروسيا (والتى استمرت من

ابريل عام ١٨٧٧ حتى مارس ١٨٧٨) بتوقيع معاهدة سان ستيفانو فى مارس ١٨٧٨ وانعقاد مؤتمر برلين (١٨٧٨) والتى فقدت تركيا بموجبها أجزاء شاسعة من دول البلقان.

وعلى الرغم من الحذر والتمهل الذى كانت تتسم به اتجاهات الغرب من الأحداث الجارية إلا أن روسيا كانت على وعى تام بأن أى تقدم منها نحو القسطنطينية أو الدردنيل سوف يستدعى التدخل المباشر للغرب بقواته البحرية.

إلا أن الأمور قد اختلفت مع بداية عام ١٩١٨ حيث أحاطت الجيوش الايطالية بالقسطنطينية، واحتل اليونانيون «سميرنا» وكانوا يعدون للاستيلاء على الأناضول، بالاضافة إلى أجزاء عديدة من تركيا تتجاوز حدود مدينة اسطنبول، كما تم تقسيم أجزاء عديدة من أرمينيا التركية، واستولت فرنسا كذلك على منطقة سيليسيا فى جنوب تركيا.

ومن حسن الحظ بعد ذلك أن انشغلت روسيا تماما فى ثورتها الأمر الذى أعاقها عن لعب أى دور استعمارى خارجي.

وفى الفترة بين ١٩٢٠ و١٩٢٢ قام الأتراك بقيادة مصطفى كامل بحرب تحريرية كُتب لهم الانتصار فيها، فتم طرد اليونانيين والايطاليين من المناطق التى احتلوها، وبعد قتال شرس سلم الروس مواقعهم فى أرمينيا التركية. وهكذا بدأت تركيا الجديدة فى الظهور بعد التفتت الذى أصابها على يد العثمانيين.

إلا أن ا لروس لم ينسوا أحلامهم بالزعامة والسيادة فى منطقة شرق البحر المتوسط؛ وبعد الحرب العالمية الثانية وجد الروس صيغة جديدة لمشروعهم فى الشرق. وهكذا منذ هذا التاريخ بدأ التدخل الروسى فى الشرق الأوسط يأخذ شكلا أكثر وضوحا، وكانت كل من سوريا ومصر هدفا لاهتمام السوفييت، وهكذا بدأنا نرى شكلا

جـديـدا من الامبريالية الروسية متمثلا فى تشجيع روسيا للاتجاهات اليسارية والماركسية بين صفوف النخبة الفكرية فى هذه الدول.

كما أود أن أشير إلى أن الكرملين وعلى رأسـه جـوزيف ستـالين استغل فـرصـة الاضطراب الـذى سـاد المنطقـة بعد الحرب. وهكـذا بتأييد من الحلفـاء الغربيين (المخابرات البريطـانية فى الشرق الأوسط وكذلك فـرنسا) والذين كانـوا قصيرى النظر آنذاك استطاعت روسيا تكوين اتجاه ماركسى فى دمشق.

ولعل قارئى بحاجة إلى أن أذكر لـه أن المشكلات الاقتصادية التى أحـدقت ببريطـانيـا بعـد صراعـات الحرب لعبت دورا كبيرا فى تفتيت الامبراطـورية البريطـانية، وهـو مـا كان يخدم الأهـداف الشيوعيـة. بالاضافـة إلى ذلك فإن ما عزز الوجـود الماركسى فى ذلك الوقت أيضا هو حداثـة الدبلوماسيـة الأمريكية التى كانت تعـانى من عدم الخبرة هذا فضلا عن الخوف المرضى من الماركسيـة والذى كان سائدا داخل الكونجرس وفى القيادات الأمنية.

ومع بدايـة ربيع عام ١٩٥٢ كان الاتحاد السـوفيتى قد بـدأ يأخذ اتجاها سياسيا فعالا ازاء مصر والشرق الأوسط. ففى اجتماع باريس عـام ١٩٥٢ ضم فضـلا عن وزيـر الخارجيـة السـوفيتى آندريه فيشنسكى العديد من الشخصيات الروسيـة ـ عرضت روسيا تقديم مساعدتها لمصر فى صراعها الوطنى ضد الامبريالية الغربية.

وكان الروس ـــ وهم أمة اشتهرت بلعب الشطرنج ـــ على وعى تام بالتنـافر الواضح الموجـود فى العلاقات الأمريكيـة العربية. فقـد كان تأييد واشنطن المطلق والأعمـى للاحتلال الاسرائيلى لفلسطين بمثـابة فرصـة ثمينة بالنسبة للـروس يمكن استخدامها فى صالح عـلاقاتهم مع العرب. وهكذا استطاع السوفييت بناء قـواعد عربية / سوفيتية فى

المناطـق الحيوية فى العـالم العربـى، ولم تنته السبعينيات إلا وكـانت البحريـة السوفيتيـة تتمتع بتسـهيلات كبيرة فى مـواقع بحريـة مهمة تمتد من القاعدة البحرية فى اللاذقية بسوريا حتى الجزائر.

وكان الشيوعيون يشجعون ويثنون على الاتجاهات السالبة تجاه الأمريكيين مـن قبل العرب، وهكذا تتشكـل لدى العرب فى ذلك الـوقت اتجاهات سالبة واضحة تجاه أمريكا.

ومن هنا فإننـا اذا نظرنـا إلى قرار الاتحاد السـوفيتى عام ١٩٥٤ بـامداد مصر بكميـات هـائلـة من السـلاح يمكننا أن نفسره فى اطـار الدوافـع التقليدية التـى كانت متأصلـة لدى الروس والتـى تنزع إلى السيطرة على البحر المتوسط.

وكانت مصر تمثل القاعـدة الأساسية للتوسع بـالنفوذ الروسـى فى المنطقـة. فصفقـة الأسلحـة التى تمت مـع مصر كـانت تعنى وجـود ما يقـرب من ١٥٠٠٠٠ روسـى كفنيين عسكريين كما كـانت تعنى فى المقابل وجـود قواعد جويـة روسية فى مصر، هذا بالاضـافة إلى أشياء كثيرة. وزيـادة نفوذ روسـيـا فى هـذه المنطقة من الشرق الأوسط كـان يعنى احياء أملها بـاستعادة أجزاء من الامبراطورية البيـزنطية فضـلا عن تأسيس امبراطورية جديدة فى افريقيا.

ولم يكن من الممكن لدول العالم والقـوى العظمى الأخرى الوقوف صامتة أمام هذه الأطماع السياسيـة بل كان من المتوقع منها أن تتخذ من الخطوات الدبلوماسية والعسكريـة ما يحبط هذه الطموحات. هذا مع العلم بأن قوى الغـرب كانت لاتـزال خارجة من حـرب مع كل من ألمانيا واليابان اللتين كانتا لهما أيضا أطماع استعمارية إلا أن الاتحاد السوفيتى كان أشد خطورة من هاتين الدولتين.

وفى اطـار هذه الخلفيـة التاريخيـة اتخذ جمال عبـدالناصر قـراره

● الفصل العــاشر ●



حــرب عــام ١٩٥٦

نأتى الآن إلى أحد أهم أحـداث تاريخ مصر الحديث، وهى حرب عام ١٩٥٦ مع بريطـانيا وفرنسـا واسرائيل. وستتنـاول الفصـول التـاليـة هـذا الحدث بخلفيـاتـه وعواقبه.

لقـد جاء تسليح مصر بعـد الحرب العالميـة الثانيـة نتيجة لقرار من الملك فاروق بأن تأخذ مصر دورا بارزا

فى الشرق الأوســط فى مرحـلة ما بعـد الحرب. إلا أن الصراع الذى كان يدور عـام ١٩٤٠ فرض إلى حـد ما على مصر مستـوى معين من عدم التسليح بينما كانت بريطانيا تقوم بـامتلاك السـلاح بوسائل مختلفة. وكـانـت الـدوافع وراء ذلك هى مـــزيج من المنطق السيـــاسى، والاحتيـاجـات التى فـرضتهـا حرب بـريطـانيـا مع جيـوش روميل والايطاليين.

على الـــرغم من ذلك فقـد جنت مصر بعـد نهايـة الحرب بعض المكـاسب الجوهريـة. أهم هذه المكـاسب هو السماح بتأسيس بنيـة صناعية عسكـرية أساسية يمكن من خـلالها تدريب وتشغيل الآلاف من العمال المصريين المهــرة. كما أن احتيــاجــات الجيش الثــامن البريطانى أثناء سنوات الأربعينيـات كان على مصر أن تفى بها، وهكذا تم تصنيع كم هـــائل من الأسلحـة التى تضم الأسلحـة المضــادة للطائرات والألغـام الأرضية. بالاضافـة إلى ذلك فقد تم انشاء العـديد من المصانع (خصـوصا فى منطقة قناة الســويس ووادى حوف) التى تقوم بـاصـلاح واعادة بناء التجهيـزات المعقدة للأسلحـة الثقيلة مثل الدبابـات والعربات المصفحة والمدفعيـة. وهكذا وجدنا أن احتيـاجات بـريطانيـا فرضت عليهـا أن تمد مصــانعها فى مصر بكل التجهيـزات الصنـاعية التى تحتـاجهـا وذلك حتى تعضـد من شأن جيوشهـا فى الشرق الأوسط وشمال افريقيا وايطاليا.

ومن النتائج الأخرى للحـرب هو قيام بريطانيا بـدفع ما يقرب من ٣٠٠ مليـون جنيـه لمصر (وهـو مبلغ طـائل فى ذلك الـوقت) لتغطيـة نفقـات الحرب ونتائجهـا. ومن ثم فـالحرب كما رأينـا أدت إلى بدايـة وجـود تصنيع مصرى فى مجالات الـذخيرة، وبعـد نهايـة الـوجـود البريطانى أرست حكـومة الملك فاروق أسـاسا لتصنيع حربى جـديد يعتمد فى تمويله على المواد المالية التى تركتهـا بريطانيا لتغطية نفقات الحرب.

أمـا النتيجة الثـالثـة للحرب فهى عقـد صفقـة أسلحة سريـة مع شخصـين ألمانيين هما دكتور «فوس» المدير السـابق لمجموعة شركات «هيرمان جوريتج» والدكتور «فيلمـر»، وكانت هذه الأسلحة هى التى تبقت بعد نهاية الحرب واشـترتها مصر بأسعـار مخفضة. وهكذا قبل ثورة عبـدالناصر كـانت مصر قد اشترت تجهيـزات صناعيـة ضخمة تساعدها فى الانتاج الحربى كما قامت هى نفسها ببناء صناعة لانتاج السلاح.

بالاضافة إلى ذلك فإن حكومـة الثورة سعت إلى عمل مباحثات مع الـولايـات المتحدة لامـداد مصر بـالتجهيـزات الحربية وكـانت هـذه الصفقـة تتضمن عددا صغيرا من الـدبـابات وبعض المدفعيـة. إلا أن عملية شحن هـذه الأسلحة قد تـوقفت نتيجة للتدخل البريطـانى، وقد أدى هذا إلى تهديد مصر باللجـوء إلى الاتحاد السوفيتى للحصول على أسلحة. وبـالفعل تعاقدت مصر مع أوروبـا الشرقية لامدادهـا بكمية هـائلة من التجهيـزات العسكريـة الحربية. فقـد أمدت روسيـا مصر بتجهيزات عسكـرية تكفى ٤٥٠٠٠ مقـاتل من بينها دبـابات مقـاتلة متطـورة، وعدد كبير من الـدبـابـات الحديثة طـراز T34، والمدفعية الثقيلـة المتحركـة و«مقاتـلات الجيت» وقاذفـات القنابل وغيرهـا من الذخائر والأسلحة الحربية.

وهكذا أصبح بامكان مصر ـ من خـلال صفقات السلاح الروسية السخية ـ أن تتفوق عسكريا على اسرائيل.

وقد نتساءل هنا عن الدوافع وراء هـذا السخاء السوفيتى. لقد كان قادة الكرملين على وعى تام بعـواقب ونتائج كل أفعـالهم. لقد كـانوا يهدفون إلى تـوجيه ضربـة إلى التوازن العسكـرى فى الشرق الأوسط. وهنا كان تحدى الغرب واضحا. وهنـا أثير السؤال: هل تقف الولايات المتحدة وحلفـاؤها دون اكتراث أمـام جيش عربى (يجهـزه ويعضده

الروس) وهو يهزم حليفتهم اسرائيل؟ مع الـوضع فى الاعتبار - فى هذا السياق - أن انتصار مصر يعنى أيضـا تثبيت وترسيخ دعائم الاتحـاد السـوفيتى داخل الشرق الأوسط والأهم مـن ذلك فى بعض المنـاطق الاستراتيجية فى افريقيا.

ترتبط هذه الاعتبارات بدرجـة كبيرة بتلك السياسة التقليدية التى ورثهـا البلشفيـون عن القيـاصرة والمتعلقـة باحيـاء الامبراطـوريـة البيـزنطيـة. لم يكن الاتحاد السـوفيتى أقل طمعـا من القيـاصرة كما تكشف عن ذلك أى دراسـة عن أطماع السيـادة والـزعـامـة لـدى الماركسيين. لقد كـانت منطقة الشرق الأوسط ومنطقة بيـزنطا فى ذلك الوقت محط أنظـار قادة الكـرملين الجدد. ولا يوجـد شك فى أن فرض السيادة على البحـر المتوسط هـو أحد الأهـداف السياسيـة الخارجية والثابتة لدى روسيا.

إن أى دراسة عن بنـاء القوة البحـرية السوفيتيـة فى الخمسينيات والستينيـات وتحركـاتها فى البحـر المتوسـط تؤكـد هـذه الحقيقـة. ولا يخفى على أحد أن الاتحاد السـوفيتى كان لـه العديد من القـواعد البحـريـة الممتـدة من سـوريـا فى الشرق إلى الجزائر فى الغـرب. كما لا يخفى على أحد أيضـا أن نسبة كبيرة من قطع البحرية السـوفيتية الحديثة مجهزة خصيصا للخدمة فى البحر المتوسط.

وهكذا فإن تواجد الروس بهذا الشكل داخل منطقة الشرق الأوسـط من خلال مصر جعل من الضرورى توجيه ضربة لمصر من وجهة نظر الغـرب، ولم يكن لدى الغـرب آنذاك تبرير يجعله يوجه ضربة لمصر فى حد ذاتها، ولم يكن يمكن للرأى العام فى أوروبـا أن يسمح بالدخول فى حـرب مع مصر خصوصـا أن أوروبـا كانت خـارجـة توا من حـرب مـريرة. إلا أن القـرار المتهور والمنـدفع لعبـدالناصر بتأميم الشركـة العالمية لقناة السويس أصبح تبريـرا واضحا للغرب يمكنه من خلاله

توجيـه ضربته. هـذا فضلا عن أن خطـاب الرئيس وقتهـا كان يحمل نبرة عدائية استغلتها وسائل الدعـاية الغربية ضد مصر التى ضخمت من الحدث وحولته من عملية تأميم مسالمة وشرعية لشركة مصرية إلى اعـلان حرب على الـدول المختلفـة التى تستخـدم قناة السـويس. إن اسلـوب عبدالنـاصر فى تناول هـذه القضية أظهـر افتقاره لأى اعـداد دبلومـاسى يسبق حدثـا له مثل هذه العـواقب؛ كما ظهر أيضـا عدم قدرته على التقييم الـدقيق لطريقة تفكير خصومـه الدوليين ومزاجهم العام. وعلى الـرغم من أن عبدالنـاصر انتصر فعلا فى النهـاية اذ تمكن من السيطرة الكاملة على قناة السويس وشركتها إلا أن هذا النصر كان مكلفا للغاية ولم يكن بمقدور مصر تحمل عواقبه.

فى هذه الآونة كان الرئيس قد أضحى ضحية لحالة البارانويا التى جعلته شـديـد الشك والتخوف من وجود تحالف عالمى ضـده أكد هذا التخوف الرفض الذى قوبل به عبـدالناصر وطلب مساعدته فى تمويل عملية بنـاء السد العالى. كل ذلك أثر عليـه باثولوجيـا وزاد من حالات الغضب والانفعال والتوتر الشديد.

لا يـوجـد شك فى أن عمليـة تأميم القنـاة كـانت خطأ للـرئيس عبدالناصر ومسئوليته الكاملة؛ فلم يكن بوسع الجيش المصرى آنذاك صد ذلك التحالف الثلاثى المكون من بريطانيا وفرنسا واسرائيل. وفى هذا القوت أيضا ذهب ما يقرب من ٣٠٠ طيار مصرى فى بعثة تدريبية إلى الاتحـاد السـوفيتى، وعلى هذا الأسـاس فإن أى معركـة عسكريـة تحدث فى هذا الـوقت كانت تعنى أن تشارك فيهـا مصر بنصف قواتها الجوية؛ وممـا ز اد الأمر سوءا أن القـادة العسكريين المصريين كـانوا يتوهمو ن أن تحالفـا عسكريـا بين انجلترا وفرنسـا واسرائيل لا يمكن الخوف منه.

بالاضـافة إلى ذلك فقد كانـت المعلومات التى أوصلتها المخـابرات

للقـادة العسكريين (بخصــوص أهـداف ونوايـا القـوات العسكريـة الانجليـزية الفـرنسية) خـاطئـة وكانت مضللـة لهؤلاء القادة؛ وهـذا الجهل بنـوايا ومقـاصـد الخصم أدى بـالقادة العسكـريين إلى اتخاذ قرارات غير صائبـة. كما كانت الشئون الخارجية والمخابـرات العامة على غير ادراك بمـدى رد الفعل الـذى أحدثـه تأميم القنـاة. والجديـر بالـذكر أن المخابرات العـامة للقوات المسلحـة أصبحت فى ذاك الوقت مسيسـة وكان على رأسهـا مجموعـة من غير الأكفـاء الذين كـان جل غرضهـم هو اظهار ولائهـم للقيادة السيـاسية؛ والغريـب فى الأمر أن مجريـات الأحداث الخارجيـة كانت تشير بـوضـوح إلى توجيـه عمل عسكرى ضـد مصر؛ فلم يكن الأمـر يحتاج إلى عبقرى حتـى يدرك أن الاستعدادات العسكرية الانجليزية والفـرنسية فى جزيرة قبرص كانت تشير إلى توجيـه ضربة مؤكـدة إلى مصر. كما كانت الظـروف المحيطة آنذاك تستلـزم اتخاذ الحذر وعدم اتخاذ خطوات منـدفعة خصـوصا بعد عملية الاسقـاط الجوى التى قامت بها اسرائيل على «متلا» والتى كانت بمثابة التبرير الذى استدعى التدخل الانجليزى الفرنسى.

وبالرغم من كل ذلك فقد بدأت القيـادة العسكرية المصرية ترى فى مساعـدات الروس وسخـائهم فى المجال العسكـرى اشـارة إلى احتمال وجـود صدام قـريب مع اسرائيل؛ فـروسيا فى ذلـك الوقت كـانت تمد الجيش بالأسلحة الجديدة والبرامج التـدريبية المكثفة، فضلا عن ذلك فقـد تم ارســال عـدد كبير من رجـال المدفعيـة والفنيين العسكـريين وضباط القوات الجوية للحصول على تدريبات مكثفة.

ويجب أن نقول هنـا أن الامدادات العسكريـة التى تلقتها مصر من روسيا حتى يـونيو ١٩٥٦ كانت كـافية للغـاية لهزيمة جيش الـدفاع الاسرائيلى فى ذلك الـوقت، إلا أن قـــوة الجيش المصرى لم تكن لتكتمل بدون مجموعـة الطيارين الأكفاء الذين ذهبـوا للتدريب فى روسيا. وفى

ذلك الـوقت ذهب مـا يقـرب من ثـلاثمائة طيـار للتـدريب المكثف فى الاتحاد السـوفيتى وكان من المتـوقع عـودتهم إلى مصر فى نهاية عـام ١٩٥٦.

وكان لجلاء القـوات البريطانية عـن منطقة القناة فى يـونيو ١٩٥٦ وذلك بكـامل قواعـدهـا العسكـرية تأثيره الجذرى على تغير الـوضع الاستراتيجى فى المنطقـة، وقـد استـدعى ذلك تحرك بعـض القـوات المصرية التى كانت موجودة على الحدود حتى تشغل قاعدة القناة. كما تحركت مراكز القيادة الشرقيـة من العريش إلى الاسماعيلية. كما أدى جلاء القـوات البريطانية عن قـاعدة القناة إلى الـربط بين منطقتى غزة والعـريش من جهة ومنطقـة الـدلتا من جهـة أخرى. وهـذا التغير فى المواقع الاستراتيجيـة أدى إلى تغيير الاستراتيجية العسكـرية للقـوات المصرية التى تـركزت فى هذه المرحلة فى اسلـوب الحرب الخاطفة الذى يعتمد على قوات مسلحة بتسليح جيد وسهلة الحركة يمكنها الوصول إلى بعض الأهداف عبر سيناء، كما تم تـدريب بعض القوات على كيفية تجميع كبارى عبور سريعة عبر قناة السويس.

وفى ليلـة الثلاثين من أكتـوبر عـام ١٩٥٦ استطـاع جيش قوامـه ٤٥٠٠٠ رجل عبور القناة فى أقل من سبع سـاعات.

ولم يكن لمثل هذه الاستعدادات العسكـرية من جانب مصر أن يتم تجاهلها من قبل القـوى الغربية العظمى. وهكذا وجدتـا فى تلك الآونة كيف أن سياسة الحيـاد العرجاء التى كانت تتبعها فرنسـا وبريطانيا فيما يتعلق بـالصراع العـربى الاسرائيلى قـد تحولت إلى تأييـد كـامل لاسرائيل وعداء عسكرى واضح لمصر.

قـامت بريطـانيـا بالضربـة الجويـة الرئيسيـة مستخـدمة فيهـا القـاذفات الثقيلـة والخفيفة ومعظم أنـواع القنابل بما فيهـا النابـالم لتـدمير كل التجهيزات العسكـريـة المصرية، وصـاحب ذلك محاولـة

ازعاج الرأى العام المصرى من خلال توجيه حرب نفسية من خلال أجهزة الراديو. وترددت فى ذلك الوقت دعاوى قبيحة تشوبها العنصرية، وكانت أجهزة الاعلام الغربية تردد هذه الدعاوى وهى من قبيل. «لن يتمكن المصريون من ادارة القناة، كما أن الروح المعنوية للمصريين سوف تنهار وسينقلبون على عبدالناصر عند أول هجمة بريطانية. ليس للمصريين أية قدرة على القتال». ولكن العكس هو الذى ثبت صحته. فعندما جاء الوقت الذى تمكن فيه البحارة المصريون وضباط البحرية من ادارة القناة وتنظيم عمليات المرور أدوا ذلك على أكمل وجه. والجدير بالذكر أن ظروف هذا الهجوم العدوانى والتحالف البريطانى مع اسرائيل وتلك الأكاذيب القبيحة التى روجتها بريطانيا كان لها أثرها السلبى حتى على أولئك المصريين ذوى الثقافة الانجليزية والذين عاشوا فيها لفترة. ومن ناحية أخرى فإن ظروف الرئيس عبدالناصر خلال أيام العدوان القليلة وما صاحبها من توتر وصراع أدت به إلى تكوين أعداء جدد أكثر من أعدائه الذين تكونوا نتيجة سياساته السابقة خلال سنوات حكمه الثلاث الأولى.

● الفصل الحادى عشر ●



ذبابة الشرق الشيوعي

أسفرت حرب السويس بكافة عواقبها عن انتصار نفسى وعسكرى كامل للاتحاد السوفيتي. وبمجرد انسحاب القوات البريطانية والفرنسية من بورسعيد فى ديسمبر ١٩٥٦ قامت الحكومة المصرية باتخاذ اجراءات متشددة ازاء ممتلكات مواطنى أى من الدول الثلاث المعتدية أو تجاه هؤلاء الأجانب أنفسهم الذين

يعيشـون فى مصر. وهكذا تأممـت الشركات الانجليـزيـة والفرنسيـة واليهودية، كما تعرض مواطنو هـذه الدول لمعاملة مهينة ومشينة من قبل البوليس السياسى.

أمـا بـالنسبـة لقـوانين جنيف التى كـانت تمنح مـواطنى الـدول المعادية الحق فى البقاء فى مصر فقـد كانت غير معروفة أو على الأقل تم تجاهلها.

وفى ذات الوقت بـدأ التأثير الشيوعى يجد طريقه إلى جـذور النظام الحاكم المصرى. وقد أدى هذا التأثير الشيـوعى والاشـتراكى الواضـح فى الحكومـة بالبعض ممن يعملـون بالصناعـة والاستثمار إلى تعديل طريقـة عملهم وتغيير بنية العمل؛ وكثيرا مـا سمعنا عن خـروج أموال كثيرة من مصر أثنـاء العقدين اللذيـن تولى فيهما عبدالنـاصر الحكم. وقبل نهاية عـام ١٩٥٦ كانت الشركـات الأجنبية قـد سحبت أصولها الاضـافية من البنـوك المصريـة ووضعتهـا فى البنـوك الأجنبيـة فى الخارج. وحتى تغطى هـذه الشركـات نفقـاتها داخل مصر قـامت بالاقتراض من البنوك المصرية؛ وبالتـالى فإن السلطات المصرية عندما استولت على الأملاك الأجنبية اكتشفت أنها استولت على أموال مصرية اقترضتها هـذه الشركات من البنوك المصريـة. ومن العوامل التى أدت إلى زيـادة التأثير الاشتراكى على الاقتصـاد المصرى هـو مجمـوعـة البنـوك الأجنبية التـى أدت تصرفاتها إلى ارتماء الاقتصـاد المصرى فى أحضان الهيئـة الاقتصاديـة الشيوعيـة لشرق أوروبا (واختصـارها كـوميكـون COMECON). واضطـرت الحراسـة فى ذلـك الـوقت إلى الاستيـلاء على أملاك الـدول المعـادية وهى مـا لا يقل عن ٩٥ شركـة أجنبيـة تعانى من ديـون وقروض للحكـومة المصريـة لا تقل عن ٢٢ مليون جنيه وهو مبلغ ليس بالقليل فى تلك الفترة.

ننتقل الآن بـالمشهـد إلى واحـة الخارجـة حيث يـوجـد مسجـون اقتصـادى شيوعى شـاب ذكى هو اسماعيل صبرى عبـدالله. وكـان

اسماعيل صبرى شابا وسيما من طبقة أرستقراطيــة إذ له صلة قرابة بعـائلة «سلطـان» كما كان ابن عم الـوجيه الثـرى «محمد سلطـان» وانتمى اسماعيل صبرى إلى عـــائلــة لها ميـول طبقيـــة كـانت محل كراهيته وكان مثاليا ويتمتع بالنظرة الليبرالية.

وتبنى شبـاب الأرستقراطيين ـ على شــاكلة اسماعيـل صبرى ـ فى ذلك الـوقت الدفـاع عن الشعـارات الثوريـة. وكان اسماعيل بطـلا فى قضية قانونية معروفة فى هذه السنـوات. وكان معروفا بالنسبة لعامة المصريين باعتباره ذلـك الشيوعى الشاب الذى عذبــه البوليس وحمل على ظهره علامات الجلد التى أراها للمحكمة أثناء محاكمته.

انتمى اسماعيل صبرى عبـداللـه إلى هــذه المجمـوعـة من شبـاب المصريين الذين تتلمذوا على يد أبو الشيوعية المصرية هنرى كورييل ـ الذى اغتيل مـؤخرا فى باريس ـ وكـان «كورييل» يهوديا مصريا ثـريا استغل ثروته فى تكوين جيـل كامل من الشباب المصريين ذوى الميول الماركسية، وكان الصـالون الـذى يعقده فى منزله فى أوائل الأربعينيات مركزا لتجمع صفوة شباب القاهرة.

وكــان اسماعيل ناقما على مــا أسماه الطبقة الحاكمــة الرأسماليــة الملكية الفـاسدة فى مصر وكان لـديه من الشجاعــة الكافية مـا يجعله يتخذ أيــة خطوات ازاء القهـر البوليسى بسبب معتقـداته السيـاسية والاجتماعية. وجاءت اللحظة التى لعب فيها اسماعيل دوره بعد حرب ١٩٥٦. وكان الاقتصـــاد المصرى بعد المعـركة فى حالــة سيئة للغـاية فالحرب تـدمر أشياء عـديدة وتكلف الكثير أيضـا فضلا عن ذلك فإن الأمـوال المصريــة بــالخارج جُمدت وصـــودرت. وفى الـــداخل أصيبت التجارة والصنــاعة بحــالة من الــركود، وممــا زاد الأمر سـوءا توقف برنامج المساعدات الأمريكى لمصر. لقـد كانت معظم القوى الغربية فى ذلك الوقت فى حالة عداء لمصر.

فى تلك اللحظة أحست القيادة المصرية بل والرأى العام كله أن الغرب قد أصبح ضد مصر، وأن الصديق الحقيقى هو الاتحاد السوفيتى الذى بدا للرأى العام فى ذلك الوقت فى صورة المخلص، فقد وقف الاتحاد السوفيتى بجانب مصر واستمر فى تقديم المساعدات لها. فى تلك اللحظة ومن قلب المعتقل أرسل اسماعيل صبرى مشروعه إلى عبدالناصر.

وكان هذا المشروع عبارة عن برنامج محدد لاعادة الحياة إلى الاقتصاد المصرى وذلك فى اطار الحكم الشمولى، ومن خلال هيئة وطنية يرأسها رئيس الجمهورية ويكون لها السيطرة الكاملة على التخطيط والتشريع والتنفيذ من خلال سياسة اقتصادية تأميمية.

وجد عبدالناصر والمحيطون به فى هذا المشروع طوق النجاة. وهكذا خرج اسماعيل صبرى من السجن وأسند إليه وضع أيديولوجية لهيئة التنمية الاقتصادية، وهى الأيديولوجية التى سيطرت على اقتصاد مصر كله بداية من عام ١٩٦١.

ترجع روح التحكم والسيطرة التى ميزت هذه الهيئة (والتى صيغت طبقا للقانون ٢٠ لسنة ١٩٦٧) لطبيعة السلطة التى كانت هذه الهيئة تعمل تحت آلياتها. فالمواد ٢ و٣ و٤ و٥ و٦ و١٧ من القانون المذكور تمنح هذه الهيئة كل الحق فى وضع القواعد والاجراءات. كما تذكر المواد ١ و١٦ و٢١ و٢٢ و٢٣ و٦٥ و٢٦ بأن السلطة المنظمة فى هذه الهيئة هى فى يد شخص رئيس الجمهورية. وهذا يعنى أن تلك الهيئة التى كان يتحكم فيها الرئيس كان لها حق التصرف كيفما شاءت فى الاقتصاد المصرى. وتركز الهدف الرئيس لهذه الهيئة فى التخلص من الاقتصاد التجارى المصرى القديم بليبراليته المفتوحة والذى يعتمد على مصانع مملوكة لأجانب؛ ومن هنا يبدو لنا التأثير القوى للماركسية اللينينية على الاقتصاد المصرى.

وهكذا بدأت هيئة التنمية الاقتصادية تتخذ شكلا مجددا ولعبت دورا كبيرا فى عملية الاستحواذ على العديد من الشركات بدعوى أن رأسمالها المسجل كان أقل بكثير من قيمته الحقيقية.

دون الدخول فى المزيد من التفاصيل. نريد أن نوضح أن حكومة عبدالناصر لم تكن تهدف بأى حال من الأحوال إلى استخدام الحل الماركسى لمشاكل الاقتصاد المصرى. إن الضرورة وحدها هى التى أدت بالحكومة إلى محاولة انقاذ الشركات المصرية التى يمتلكها أجانب من الانهيار والافلاس. وكان الحل هو الاقتراحات التبسيطية التى قدمتها هيئة التنمية الاقتصادية؛ ولكن للأسف لم تضطلع حكومة عبدالناصر بمهمة دراسة هذه الاقتراحات وعواقبها. أما الماركسيون فكانوا على وعى تام بما يفعلونه، وكان هدفهم الأول هو التخلص من الاقتصاد المصرى القائم على مفاهيم اقتصاد السوق، وساعدهم فى تحقيق هذا الهدف مجموعة القوانين التى وضعت فى ذلك الوقت.

وهكذا قامت القيادات فى هيئة التنمية الاقتصادية باستبعاد كل العناصر التى تظهر الولاء للمفاهيم الماركسية أو للقيادة السياسية، ومن ثم تم فصل العديد من المديرين واستبدالهم بآخرين يفتقدون للخبرة المهنية، ولم تكن النتيجة فى النهاية إلا حالة من التشويش والاضطراب، وأثرت أيضا المفاهيم الماركسية على قطاع التصدير والاستيراد الذى كان يتسم بالحيوية فى الاقتصاد المصرى، وعلى وجه الخصوص تصدير القطن اذ لا يخفى على القارىء أن النظريات الاقتصادية الماركسية تغض النظر تماما عن التسويق القائم على قانون العرض والطلب.

فضلا عن ذلك فقد انخفضت مستويات الأجور بشكل واضح نتيجة لدعم نفقات الانتاج، وهذا بدوره أدى إلى القضاء على مفهوم حوافز الانتاج الذى هو أساس لكل اقتصاد ناجح.

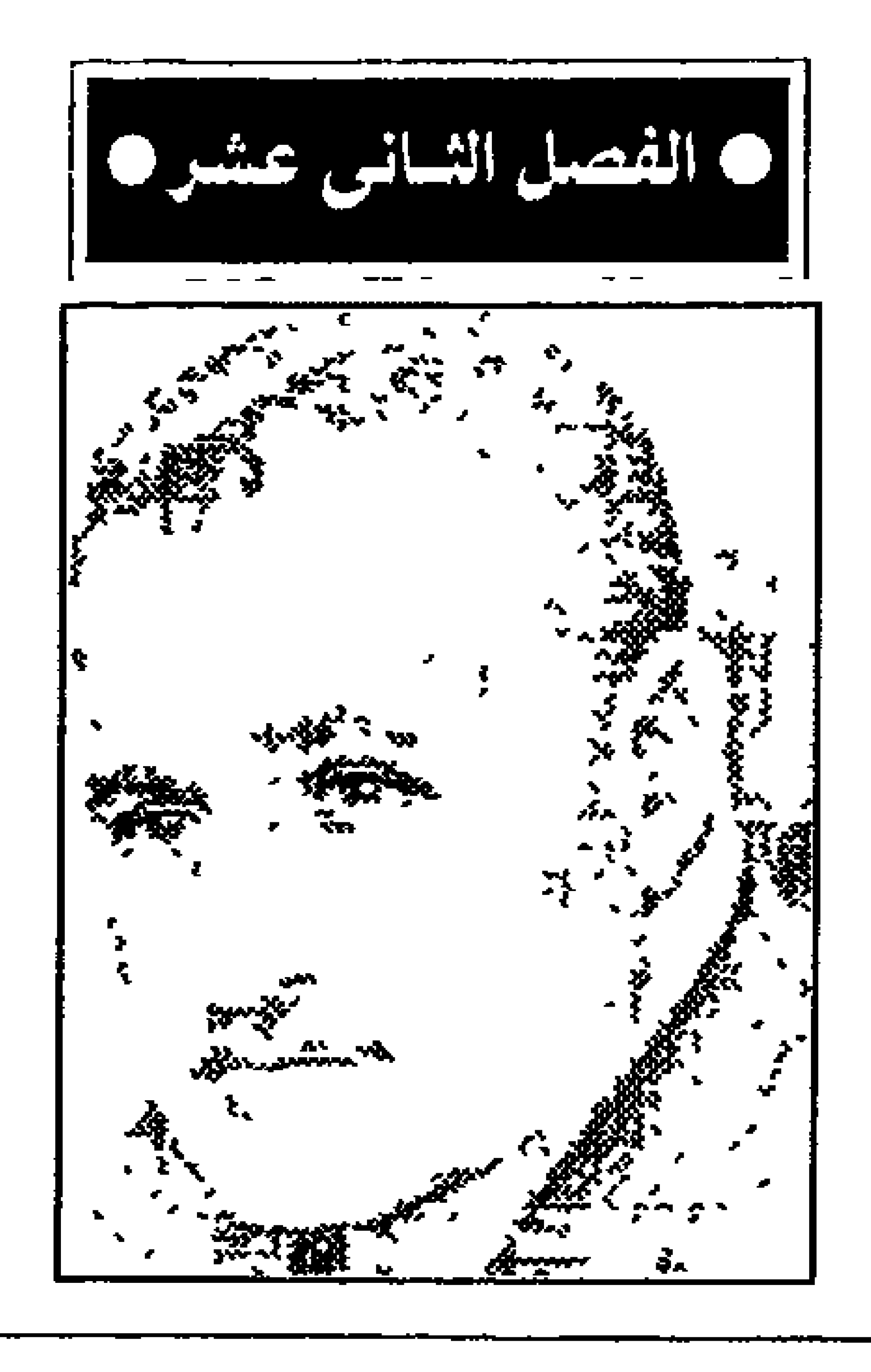
وهكـذا صار تـوجه الاقتصـاد المصرى نحو شرق أوروبـا، وقلت الروابط التجـارية مع الغـرب، وأصبحت هيئة «الكوميكـون» تسيطر على صادرات مصر بشكل واضح.

حدثت المرحلة الأخيرة لهذه المأساة فى أواخر عام ١٩٦١ عندما تم تأميم الاقتصاد الصنـاعى المصرى كله، وتمت عمليـة التأميم بسرعة مذهلـة اندهش لها حتى الماركسيـون ذاتهم، فأتذكـر أن دبلومـاسيا يوغـوسلافيـا ذكر لى آنذاك: «انكم تحاولون أن تفعلوا فى أيام قليلة ما فعلته الدول الشيوعيـة فى سنوات؛ وأخشى أنكم لن تنجحوا ، ولكنكم بهذا الشكل تزيـدون من الكارثة». وفى ذات الوقت فى القـاهرة اتخذت الكـارثـة شكـلا سيـاسيـا فبعـد تأميم القطـاع الخاص تم تـوجيـه الاتهامات إلى رجـال الصناعـة والأعمال وأعضاء الطبقـة البرجوازيـة بأنهم أعداء للشعب ومستغلون ومجرمون.

وفى تلك الفترة شاع استخدام كل مفردات الشيـوعية الثورية وذلك فى الـراديـو ووسـائل الاعلام. كما قـامت المخـابـرات بـالقبض على الكثيرين، وكـانـت هـذه الفترة فترة ازدهـار البـوليس السرى الـذى امتـلأت على يـديـه المعتقلات ولم يـدر الماركسيـون الـذين احتفلـوا بـانتصارهم فى ذلك الـوقت أنهم كانـوا يبـدأون مرحلـة من الركـود والانهيار الاقتصادى التى مازالت آثارها باقية حتى الآن.

وظهرت أولى عـواقب عملية التأميم فى سـوء العلاقات مع سـوريا، ففى ذلك الوقت حدث انقـلاب فى سوريا فى سبتمبر عام ١٩٦١ سبب الكثير من المشاكل لعبد الناصر. وفى تلك الفترة أيضا ألغيت الوحدة مع مصر، كما قام مدبـرو الانقلاب بالقبض على المشير عبدالحكيـم عامر الذى كان فى زيـارة لسوريا وقتذاك، وهكذا بـدأ فصل جديد محزن فى تاريخ مصر.

● الفصل الثانى عشر ●



نزوات نائب الرئيس

استيقظ الرئيس عبدالناصر فى صباح أحد أيام ربيع عام ١٩٦١ على أخبار سيئة. لقد حدث تمرد فى سوريا على القادة المصريين كما تم أسر المشير عبدالحكيم عامر بينما كان يستمتع باحدى غزواته الغرامية فى دمشق. وكان عبدالحكيم عامر يملك عينا لا تخطىء الجمال الأنثوى وكانت انتصاراته فى شئون الغرام تفوق

انتصاراته الحربية. وكان عبدالحكيم عامر حاكما مصريا لسوريا.

ولا يمكننا القـول بأن التمرد السـورى لم يكن متوقعـا، فقد سبق للسـوريين أن أشاروا على عـامـر بأن ينصح عبـدالناصر بأن مـا تم فـرضـه على المصريين لا يمكن تطبيقــه على السـوريين. كما رفضت قيادات حزب البعث المحاولات المصرية بالتخلص من هذا الحزب. كما أخبر السوريون عبدالناصر بأنه لا يمكن فرض نظام التأميم المصرى على الاقتصاد والصنـاعة السـوريين. ولم تُقابل هـذه الاعتراضات إلا بالرفض الأمر الذى أدى إلى حدوث هذا التمرد.

وعندما استبد الغضب الأعمى بعبدالناصر استدعى قواده وأمرهم قائلا: «عاقبوا السوريين».

ولكن قواد عبدالنـاصر ـ الذين اضطربـوا بسبب غضب الرئيس ـ لم يؤدوا أداء حسنـا فى أرض المعركـة وانسحبوا. وكـانت المحـادثات التى دارت بين هـؤلاء القـادة آنذاك جديرة بالتسجيل، والتى أثيرت فيها الأسئلة التالية: كيف يتسنى لنـا هزيمة السوريين وبأى وسيلة؟ هل من خـلال هجوم على الـلاذقيـة؟ لكن السـوريين يملكون مـدافع بحريـة سعة ٦ بوصـات أعطيناها لهم، كما أن أكبر المدافع البحـرية التى نملكها هى سعـة ٤,٧ بوصة. وحتى اذا هـزمنا القوات الدفـاعية السوريـة كيف يتأتى لنا انـزال مركباتنـا البحرية على أرض سـوريا حيث تتسم شواطئهـا بصعوبة عملية الانـزال البحرى، ولكن مع ذلك كلـه لا يـوجـد أى سبيل آخر إلا الهجوم فالرئيس لا يريد أن يسمع كلمة «الحذر». وفى هذه الظروف فالمشير عامـر هو الوحيد الذى يمكن أن يتحدث إلى الرئيس ويجعله يعيد النظـر فى الأمور، ولكن عامر أسير فى دمشق، ومن ثم ما يمكننـا فعله هو أن نرسل منـدوبا إلى السوريين نـرجوهم اطـلاق سراح المشير حتى يأتى ليهـدىء من روع الـرئيس الذى أصابته نوبة الغضب!

وفى القاهرة وفى نفس ذلك الوقت تتابعت بعض الظروف والأحداث الغريبة مثل القبض على البعثة الدبلوماسية الفرنسية واعتقالى ضمنا ومحاكمتى.

وفى هذا السياق أود أن أتعرض لشخصية جديدة شاركت فى مسار الأحداث آنذاك وهو القائمقام داود عويس. وكان عويس ضمن مجموعة الضباط الأحرار، وكان أحد الأصدقاء المقربين للمشير عامر. كما كان عويس ضمن مجموعة الضباط التى حوصرت فى الفالوجا وكان من بينهم عبدالناصر وعامر وآخرون ممن انضموا لمجلس قيادة الثورة. وكان عويس قد دعا للانضمام إلى مجلس قيادة الثورة ولكنه رفض ومن ثم عُيِّن فى العديد من المواقع المتميزة داخل القيادة العسكرية، فقد شغل منصب الرجل الثانى فى البوليس الحربى بعد القائمقام أحمد أنور. وبعد ذلك انضم للمشير عامر عندما بدأ يمارس نشاطه فى سوريا. وكان عويس نشطا فى مجال العلاقات السياسية بين مصر وسوريا. كما كان عويس يتمتع بعلاقات حميمة مع قيادات حزب البعث فى دمشق وعلى وجه الخصوص ميشيل عفلق وأكرم حورانى وصلاح بيطار ونجح فى اكتساب ثقتهم. وكان لداود عويس دوره الهام فى الصراع الدائر بين الفصائل المختلفة فى سوريا. وبعد اتمام الوحدة حدث داخل سوريا استقطاب ما بين حزب البعث اليسارى والقائمقام عبدالحميد سراج والذى كان يشغل منصب وزير الداخلية، وكان مقربا لعبدالناصر. وقد حصل سراج على هذا المنصب بعد أن اكتسب ثقة الرئيس بعد أن أفضى إليه بمحاولة السعوديين لتجنيده لاغتياله بعد أن منحوه ٢ مليون دولار. تطورت الأمور تطورا سريعا فى أواخر عام ١٩٦١ نتيجة لمحاولة مصر فرض نظام التأميم والقضاء على كل الأحزاب السياسية فى سوريا.

وعندما واجه حزب البعث خطر الانحلال لجأ إلى عويس والمشير

ولكن بلا جدوى؛ فقد كان عبدالناصر مصرا على التخلص من كل الأحزاب السياسية، وحاول فى سبيل ذلك أن يقدم لميشيل عفلق منصب نائب رئيس الجمهورية العربية المتحدة فى مقابل عدم استمرار حزب البعث. أدى هذا كله إلى اتخاذ حزب البعث موقف المعارضة من عبدالناصر كما حاول الحزب ضم عويس والمشير عامر فيما يشبه المؤامرة ضد الرئيس. ولكن عويس نقل هذه المعلومات إلى القاهرة.

بعد حدوث الانقلاب وأسر عبدالحكيم عامر تم اختيار عويس ليكون على رأس وفد يتوجه إلى سوريا لعمل محاولة لاطلاق سراح عامر. ذهب عويس يصاحبه ضابطان إلى بيروت أولا ثم أخذ الجميع سيارة إلى دمشق، ولكن عندما وصلوا إلى حدود سوريا علموا أن عامر قد أطلق سراحه وهو الآن فى طريقه إلى القاهرة. وفى طريق عودته إلى لبنان وجد عويس أن الصحف اللبنانية كتبت بالتفصيل عن هذه المهمة السرية، وكان الذى أفشى هذه الأسرار هو السفير المصرى فى بيروت؛ وعندما وجد عويس ذلك امتلأ غضبا وعاد إلى القاهرة وروح التمرد تسيطر عليه. والحقيقة التى تتضح لنا هنا أن النظام لناصرى كان يفتقر إلى التنسيق مع السفراء كما كان يفتقر إلى النظام والاحساس بالمسئولية هذا فضلا عن انتشار الفساد واستشرائه فيه، وخاصة بين الضباط والمديرين الأمر الذى شوه شكل وسمعة ثورة ٢٣ يوليو. بل إن عبدالناصر نفسه ابتدأ فى ذلك الوقت الشك فى كل من حوله واتهامهم بالخيانة كما كان يرفض أن يسمع لصوت العقل. لقد بدأ الرئيس منذ تلك اللحظة يتصرف كالطاغية، وبدأت مصر تصاب بالضعف والأفول.

لم يأخذ عبدالناصر فى الاعتبار الطبيعة المميزة للسوريين والمختلفة عن طبيعة المصريين، فالاقتصاد السورى قائم على التجارة

ومعـــايير السـوق، وكـــان من الصعب اخضـــاعـــه للتأميم، ولكن عبدالنــاصر رفض كل النصائح وحـاول فرض الاصــلاح الاقتصادى والاجتماعى الـذى فـرضـــه على المصريين؛ وهكـذا أدى هـذا التفكير المندفع من عبدالناصر إلى حتمية حدوث التمرد فى سوريا

وكان عـويس آنذاك يشعر بالمرارة الشديدة ذلك لأنه طالما نصح الـرئيس بعـدم امكانيـة تطبيق الاصــلاحـات التى تمت فى مصر على ســوريا وعلى وجـه الخصوص التخلص من كل الأحـزاب السياسيـة وتطبيق نظم الاقتصاد الماركسى.

وكان عويس رجل فعل واتخاذ قرارات ومن ثم قرر أن يفعل شيئا. وكـان يشارك عـويس فى أفكاره ثـلاثة ضبـاط آخرون هم القائمقام وحيد رمضان، ولطفى واكد عضو البرلمان، والصاغ محمد السقا. وتم تشكيل لجنة ضبـاط من هذه الشخصيـات الأربعة، ومن خـلال هذه اللجنة اتخذ قرار صياغة نقـد مفصل للحكم الناصرى يستخدمونه فى صدامهم مع الرئيس.

وبالفعل تم ذلك وبعدما انتهوا من صياغة هذا النقد المفصل زادت قناعتهم بضرورة فعل شىء ، وكانـت خطوتهم الأولى هى محاولة ضم المشير عامر الذى كان ضحية لاندفاع الرئيس فى سوريا.

ولم يكن عـامـر على استعداد لاتخاذ مـوقف ضـد «أخيـه» جمال وذلك على الرغم من تعاطفه مع آراء عويس ومن معه.

وهكذا وجد عويس ومن معـه أنفسهم أمام اختيارين لا ثالث لهما: إما أن يلجأوا للعنف أو للحلـول الدبلوماسية؛ ولكنهـم فضلوا الخيار الثـانى، ووجدوا أنهم لابـد أن يضغطـوا على عبدالنـاصر حتى يجرى اصلاحات جوهرية. ويجب أن يعلموه بشكل ما بوجود عدد لابأس به من ضبـاط الجيـش غير راضين عن حكمـه، ومن ثم قـرروا ارســال خطاب غير مـوقع يتضمن مآخذهـم على حكمه ونقدهم لـه. وتم فعلا

كتابة الخطاب الذى انتهى بذلك التهديد «ان لم تجر اصلاحات عاجلة فسوف تلقى نفس مصير فاروق». وحمل الخطاب توقيع «الضباط الأحرار».وكتب هذا الخطاب على الآلة الكاتبة فى أحد مكاتب المخابرات، وكتبه ضابط مخابرات شاب يدعى عبدالحفيظ السيناوى. كما أرسل من هذا الخطاب ١٢ نسخة لجميع أعضاء مجلس قيادة الثورة؛ كما تم وضع هذا الخطاب على مكتب عبدالناصر بجوار غرفة نومه.

ويمكن أن تتصور الانزعاج الذى أصاب الرئيس عندما وجد هذا الخطاب على مكتبه؛ فهذا يعنى أن أى شىء يمكن أن يحدث وأنه قد يقتل فى فراشه. كما أن هؤلاء المتمردين الذين أرسلوا له الخطاب يمكن لهم أن يجبروه على التنحى وأن يجبروه على تعيين خلف له منهم. ومن ثم أدرك الرئيس أن التهديد كبير لاسيما أن مصدره خصوم بهذه القدرة.

وكان الرئيس فى هذه الفترة قد أصبح بالفعل ضحية للبارانويا وبدأ يتخيل وجود عمليات ثورية يتم الاعداد لها وتهدف إلى الاطاحة به. فقد كان يتصور أن الجيش بمساعدة بعض العناصر التى كانت موالية لفاروق يمكن أن يُزَّج به فى مؤامرة تؤدى إلى استعادة الملكية. وهكذا تخيل عبدالناصر أن الخصوم والأعداء حوله فى كل مكان، وأن بعض ضباط الجيش البرجوازيين ليسوا موالين له ويعدوا العدة لمؤامرة ضد الشعب يساعدهم فيها الرجعيون الموالون للعصر البائد.

وكانت هذه اللحظة هى التوقيت الذى بدأ فيه صلاح نصر يظهر ويلعب دوره باعتباره رئيسا لجهاز المخابرات؛ وللقارىء أن يتخيل ماذا يمكن أن يحدث عندما يكون على رأس جهاز المخابرات رجل قروى جاهل لا يتمتع بأى وجهات نظر سليمة؛ ومُنح صلاح نصر فى تلك الفترة كل صلاحيات السيطرة والقمع للمواطنين المصريين؛

أضف إلى ذلك أن البلــد بــأكملهــا أصبحت تحت رحمة رئيس ملأته البارانويا شكا وغضبا.

ومع بدايــات خريف عام ١٩٦١ أصبح الـرئيس يعانى من حــالة بارانــويا متطورة؛ كما اشتـدت عليه فى هـذه الآونة أيضا مضــاعفات السكر، هذا فضلا عن أن ضغوط الأحـداث المتنوعة التى أحاطت به فى ذلك الوقت أثرت على قدرته على التمييـز. وهكذا اجتمعت البارانويا مع الضغـوط العصبية مع مضــاعفات السكـر لتؤثـر بشكل واضح على جسد وذهن الرئيس.

أخذت المخـابرات شهـرا للتعرف على شخصيـات الضباط الـذين كتبـوا الخطـاب. وتم ذلك من خلال تحديـد البصمات الموجـودة على الخطاب والتى أدت إلى الكشـف عن شخصية عبدالحفيـظ السيناوى الذى انتحر بعد اعترافه على عـويس ومجموعة الضباط الآخرين. وتم القبض على هؤلاء؛ وباستخـدام أدوية معينة أجبروا على الاعتراف بكل تفاصيل هذه المؤامرة، بل ان عويس نفســه اعترف بمسئوليته الكاملة عن هذه المؤامرة.

لكن عبـدالنــاصر كــان يخشى من تعـاطف النـــاس مع عـويس والضبــاط الذين معــه، ولذلك فكــان يجب نسج قصــة عن خيانـة أو تخابر مــع اسرائيل أو عن وجود عــلاقات مع الـرجعيين؛ وأسندت إلى صــلاح نصر هذه المهمــة. إلا أن هــذا القروى الجاهل (صــلاح نصر) ارتكب العديد من الأخطاء تحولت على أثرها قضية عويس إلى كوميديا على شاكلة أفلام «شارلى شابلن» والاخوة «ماكس».

● الفصل الثالث عشر ●



تجاذب الخارج

نستكمل فى هـذا الفصل إلقـاء الضـوء على محاولات صلاح نصر العبقرية لنسج قصة يمكن من خلالها منع أى تعاطف مع عويس وزملائه. وهذه القصة خرجت فى مرحلـة من مراحلهـا من يـد صلاح نصر وبدأت تـأخذ أبعادا أخـرى وقد أدت هـذه الأبعاد إلى حـدوث مشـاكل بين الحكـومتين المصريـة والفـرنسيـة وبين عبدالناصر

والجنرال ديجول. كما كـان من توابـع هذه القصــة حدوث صراع بين المخابـرات والنظام القضائى المصرى انتهى بسيطرة عبـدالناصر على القضاء من خلال البوليس السياسى.

بدأ صــلاح نصر محاولاته لايجاد شركاء لعـويس وضباطـه سواء كـان هـؤلاء الشركاء مصريين أو أجـانب. ومن هنـا بـدأ صــلاح نصر عمليـات بحث واسعــة المدى، وألقى فيهـا القبض على العــديـد من المواطنين الأبرياء مـن القاهرة والاسكندرية، وأطلق المئـات من عملاء البــوليس السرى ليقتحمـوا بيــوت ممن اعتبروهم «البرجــوازيين» وليخضعوهم لعمليـات استجواب قـاسية؛ وكـان السؤال الـذى كان يوجه لكل من يتم القبض عليـه هو ما اذا كان له أقربـاء بالجيش، لقد أراد صلاح نصر أن يقيم علاقة بين عويس والرجعيين.

وقد أشرنـا سابقـا إلى المشكلة التى قـابلت عبدالنـاصر بخصوص قضية عويس وزملائه، فقد كـان عبدالناصر يرى ضرورة أن يُظهروا أمام الرأى العام كخونــة. وهذا ليس بمستغرب على عبدالناصر فى مثل حالتـه الصحية، فمـريض البارانـويا يختلط عنـده الواقع بـالخيال. فمجرد الشك فى وجـود مؤامـرة يُعد شيئـا كافيـا لتأكيد وجـود هذه المؤامرة.

وسنرى بعد ذلك كيف أن القاعـدة الأمنية التى كانت متبعة آنذاك أن عدم وجود أيــة دلائل ضد الشخص المشكوك فى أمره يـؤكد أن هذا الشخص مذنب. ففى تلك الفترة كنا نعيش فى عصر أقـرب ما يكون إلى عصر الملكة الحمراء فى قصص أليس فى بلاد العجائب. وهكذا كان لابد من ايجاد دلائل على خيـانــة عـويس أو نسج هـذه الـدلائل من عـالم الخيال؛ فتهمة الخيانة تستدعـى وجود شركاء وشركاء ليسوا عاديين، وهـؤلاء الشركـاء يجب أن يكونـوا اسرائيليين أو بـريطـانيين أو حتى أمـريكيين. لقـد كـان عبـدالناصر يـرى أن من يقـومـون بثـورة على

الحكومة ينظر إليهم الناس باعتبارهم أبطالا، ومن ثم لا يجب منح عويس وزملاءه مثل هذه الفرصة.

فى هذه اللحظة بدأت مخيلة صلاح نصر تعمل لكى تخلق من العدم هؤلاء الشركاء الوهميين. كانت البعثة الدبلوماسية الفرنسية من أكثر البعثات التى يمكن اختراقها، فقد كانت بعثتهم تتكون من أربعة دبلوماسيين أتوا للقاهرة فى محاولة لاعادة العلاقات الدبلوماسية التى كانت موجودة قبل حرب ١٩٥٦، وكان على رأس هذه البعثة السفير « آندريه ماتى » ومعه سكرتير أول وملحق ثقافى وملحق اقتصادى.

زُودت مكاتب هذه البعثة بأجهزة للتنصت من قبل المخابرات وهكذا تم الاستماع لكافة الأحاديث والحوارات التى تمت داخل غرف البعثة الدبلوماسية الفرنسية. وتم تسريب معلومات خاصة بمؤامرة عويس إلى هذه البعثة عن طريق أحد عملاء المخابرات المصرية والذى كان يعمل فى هذه البعثة، وهكذا تم تسجيل مناقشات بين الفرنسيين حول هذا الأمر، كما تم الكشف عن وجود تقارير كانت ترسل إلى باريس بشأن وجود مؤامرة عسكرية ضد عبدالناصر، ولكن المشكلة كانت فى صعوبة تحديد ما اذا كانت معرفة الفرنسيين بهذه المؤامرة سابقة على تسريب بعض المعلومات عن طريق عميل المخابرات المصرى أم لا.

وفى تلك اللحظة قرر صلاح نصر القبض على الملحق السياسى للبعثة وكان اسمه «بيليفيير». وبسذاجة من «بيليفيير» أراد أن يحمى موظف السفارة الذى أبلغه المعلومات فذكر أن الصحفى «فرانسوا شوفيل» هو الذى أمده بالمعلومات عن المؤامرة؛ وكان «شوفيل» قد غادر مصر قبل عدة أيام متجها إلى فرنسا.

وهنا قرر صلاح نصر إلقاء القبض على كل أعضاء البعثة

الدبلوماسية الفرنسية، ومما لاشك فيه أن هذا حدث بموافقة الرئيس الكاملة، وهنا نرى أيضا مثالا واضحا على البارانويا المتطورة التى تجعل المريض بها غير قادر على التمييز بين الواقع والخيال. فتفكير عبدالناصر الخاص جعله يعتقد أن الفرنسيين مسئولون فعلا عن تدبير مؤامرة للاطاحة به، ومن ثم وجب معاقبة هؤلاء ومحاكمتهم بغض النظر عن أية حصانة دبلوماسية أو أى شىء من هذا القبيل.

وما أثار غضب وانزعاج الجنرال ديجول أنه علم أن السفير «ماتى» ومن معه تم القبض عليهم فى معتقل بالقرب من القاهرة وكانوا يساقون يوميا إلى مكاتب المخابرات للتحقيق معهم.

وكان السفير «ماتى» ذا شخصية ثابتة قوية تتصرف بشىء من الهيبة والكرامة، على النقيض من ذلك كان «بيليفيير» طيعا ومن السهل الحصول منه على تصريحات قد تضره، وكان ضمن المقبوض عليهم المسيو «ميكيل» الذى كان يشغل سابقا منصب رئيس «الكوليج دى فرانس» وهى أحد أكبر المؤسسات التعليمية الفرنسية. وكانت الفتاة الفرنسية الوحيدة ضمن المقبوض عليهم هى « آرليت بو»، وكانت سكرتيرة السفير. ومرت آرليت بخبرة قاسية فى المعتقل كشفتها أمام القضاة.

وبالاضافة إلى الفرنسيين فقد ضمت مجموعة المعتقلين عدلى بك اندراوس المحامى اللامع والسفير السابق لمصر فى باريس، كما عمل أيضا قاضيا، ولا يمكن التعبير عن ملامحه عندما وجد نفسه فى موقع المتهم بعد أن كان طوال حياته فى موقع القاضى أو المحامى على الأقل. وكان ضمن هذه المجموعة أيضا أكبر مساعدى وزير الثقافة المصرى آنذاك وكان اسم هذا المساعد مسعد عبدالمجيد، وكان محدث ذكى لديه القدرة على امتلاك انتباه سامعيه.

كما كان «جابرييل انكيرى» ضمن المقبوض عليهم، وكان صحفيا

مخضرما، وكان يقوم بتحرير جريدة فرنسية فى القاهرة آنذاك، كما كان يعمل مستشارا للسفير «ماتى». وكان «ماتى» من أصل عربى فلسطينى وهو أمر سهل له الحركة فى أوساط القيادة السياسية.

أضف إلى كل هذه المجموعة واحدا من المقربين من الكنيسة الكاثوليكية وقياداتها وكان اسمه «فؤاد»، والذى اعترف بأنه كان يعمل عميلا مزدوجا للبوليس وكان فى ذات الوقت يبيع معلومات للسفارات المختلفة فى القاهرة. وفى السجن كان يتلقى فؤاد الكثير من الزيارات من قبل قيادات الكنيسة الكاثوليكية فى الوقت الذى كانت الزيارات فيه صعبة جدا. وفى الزنزانة كنا نسمع فؤاد وهو يؤدى بعض التراتيل الجريجورية، وكنا عندما نسمع هذه التراتيل نشعر وكأننا عدنا إلى عصر الاضطهاد حين كان الرومان يلقون بالمسيحيين إلى الوحوش المفترسة فى ساحات المصارعة.

● الفصل الرابع عشر ●



فى شبكة الشراكة

لعله من المناسب فى هذا الفصل أن أسرد على قارئى الظروف التى أدت إلى اعتقالى.

ففى أحد الأيام بينما كنت أتجاذب أطراف الحديث مع العائلة بعد الغداء جاء الخادم وأخبرنى بأن هناك بعض السادة فى انتظارى ويريدون مقابلتى. وكان من بين هؤلاء شاب ضخم وآخر قصير ونحيف قدم نفسه

على أنه من النيابة، ورجل آخر فى الخامسة والعشرين تتسم ملامحه بالصرامة. وعندما قابلتهم قال لى الشاب الضخم: «جئنا لنسألك بضعة أسئلة، كما نريد تفتيش شقتك ومكتبك».

و فى هذه الآونة اعتاد البوليس اقتحام البيوت فى الفجر وبطريقة مستفزة، ولذلك كنت أشعر ببعض الراحة، فعلى الأقل قد جاءوا فى وقت مناسب.

ولم يكن ذلك الشاب الذى زارنى إلا صلاح نصر نفسه. وقد اكتشفت بعد ذلك مدى تأثير صلاح نصر على عبدالناصر. وفى اللحظة التي جاءنى فيها لم أكن أعلم ذلك ولذلك لم تبدو علىّ دهشة بالغة.

وفى مكتبتى بدأ هؤلاء الزائرون التفتيش، وعندما شرعوا فى التفتيش وجدوا أنه من الصعب تفتيش مكتبى ــ الذى كان يغص بأكوام من الأوراق ــ تفتيشا دقيقا. وهنا قال لى صلاح نصر: «سنصطحبك إلى ادارة المخابرات لبعض الوقت». فقام بالتقاط بعض الأوراق ورسما لصاروخ فضائى كنت قد رسمته لابنتى، ولا يخفى أن هذا الرسم كان من محض الخيال. واكتشف هذه الصورة أحدهم فأراها للآخرين الذين تبادلوا نظرات لها دلالتها وتوحى بمعانى كثيرة. وهكذا اعتبروا ما وجدوه فى غاية الأهمية. وهنا قالت زوجتى «يحسن أن أعد لك الحقيبة»، ومثل هذه الجملة البسيطة من زوجتى زادت من شكوكهم، فذكاؤهم صور لهم أن معنى هذه الجملة اننى أعرف مسبقا انهم سيعتقلوننى. فأجاب صلاح نصر زوجتى قائلا: «لا داعى فسيكون معنا لبعض الوقت» وكان يقول ذلك وهو ينظر إلىّ أنا وزوجتى نظرة شك واتهام. وحتى الآن لم يكن قد وجد شيئا خطيرا ضدى، فغادرت المنزل معهم فى سيارة ليموزين سوداء فاخرة أمريكية الطراز. و فى داخل السيارة التصق بى أحدهم وقبض على ذراعى اليسرى بكلتى يديه، وكان الرجل المسكين فى غاية الاضطراب

لعلمه أنه مسئول عن حراسة جاسوس خطير ومحترف (وهى التهمة التى وُجهت إلىّ). وبعد أن قطعنا مسافة قصيرة كشر من معى عن أنيابهم الحقيقية. فقد قاموا بتكبيل عنقى وطرحونى فى أرضية السيارة وذلك بعيدا عن أنظار المارة، كما وضعوا القيود فى يدى وعصابة على عينى. وبعد ذلك قال صلاح نصر محدثا اياى: «لا يمكن أن نتفاخر بك أمام الناس، فماذا يقولون عندما يرون رجلا مكبلا ومعصوب العينين داخل سيارة ليموزين فاخرة، فاخفض رأسك». وكان حارسى يتمتع بالاصرار والثبات الشديدين فكان طول الوقت يضع يديه الثقيلتين على عنقى ويطرحنى فى أرضية السيارة. ولم تكن هذه إلا أول خبرة لى مع المخابرات والتى عرفت بعد ذلك أنها قواعد ثابتة تتبع مع كل من تقبض عليه المخابرات العامة للقوات المسلحة إلا اننى كنت محظوظا لأنهم لم يسيئوا لى كثيرا فقد علمت أن سلوكهم ازاء بعض المواطنين الأقل نفوذا كان يتسم بالسوء والوحشية والقسوة، سمة أخرى كانت تميز رجال المخابرات آنذاك هى ثقتهم الشديدة بأنفسهم التى تصل إلى حد التضخم وذلك لعلمهم المسبق بأن المواطنين يرهبونهم ويعرفون أنهم يمكن أن يحصلوا على أية معلومات لأى شخص أو أى شيء يرغبونه، ولذلك فإن ساكنى القاهرة كانوا مصابين «بفوبيا» من المخابرات وكانوا يشكون فى أن المخابرات تتنصت على أحاديثهم ومكالماتهم التليفونية.

وهكذا انطلقنا بالسيارة فى شوارع القاهرة ولم أكن أجد صعوبة كبيرة فى تخمين الطريق الذى كنا نسلكه، وذلك من خلال حركات السيارة والفرامل. ووصلت السيارة أخيرا إلى مبنى المخابرات بمنشية البكرى، أخرجونى من السيارة مكبلا ومعصوبا ثم صعدنا سلما قطعنا بعده عشرة خطوات إلى اليمين ثم عشرة إلى اليسار، ووجدت نفسى فى النهاية أمام مكتب على حسب ما بدا لى آنذاك وعندئذ سمعت

صوتا جهوريا يقول لى. «ما اسمك» ـ عادل ثابت، «ماذا لديك لتقوله عن نفسك؟» ـ أنا مندهش لاحضارى إلى هنا؟ لماذا أنا هنا؟ «ستعرف حالا». قيلت الجملة الأخيرة بنبرة تحمل التهديد على الطريقة المسرحية، وبشكل يجعل سامعها يشعر بالذنب. ولعلى لا أبالغ اذا قلت أن رجال المخابرات هم بحق ممثلون رائعون و لديهم قدرة كبيرة على شحن كلماتهم بشتى أنواع العواطف حتى ليخيل للمرء أنهم تخرجوا من الأكاديمية الملكية لفنون الدراما بلندن أو الجمعية الدرامية بنيويورك. كما انهم يتمتعون بقدرة خارقة على أن يجعلوك تصدق على قوتهم وقدراتهم الخاصة.

وفى البداية نزعوا عنى أربطة الحذاء والحزام وربطة العنق والأقلام التى كانت معى وهى أشياء يمكن أن تستخدم فى الانتحار عندما يصل صاحبها إلى حد الاحباط واليأس. وبعد ذلك قادونى وأنا مازلت مكبل اليدين ومعصوب العينين إلى حيث دورة المياه وهناك كان كرسى مجهز لى وأجلسونى عليه. وجلست فى دورة المياه لمدة ساعتين جاء أثناءها معظم من كانوا بالدور ليقضوا حاجتهم دون أدنى اكتراث بوجودى.

وأثناء وجودى بدورة المياه كنت أسمع بالحجرة المجاورة صخبا وأصوات صفعات تعقبها تأوهات شديدة. كما كنت أسمع بين الحين والآخر أصوات منتظمة بدت لى وكأنها نفخ يقوم به شخص باستخدام منفاخ كبير، وكان يقطع أصوات النفخ المنتظمة صرخات الضحية المتألمة، ثم تلا ذلك صوت بدا وكأنه أمر يقول «كفاية»، وبعد ذلك وجدت باب دورة المياه يفتح وأحسست بأناس يحملون انسانا يتأوه تأوهات ثقيلة ومتقطعة، وما أن وصل إلى دورة المياه بجانبى حتى بدأ يخرج ما بجوفه. وبعد أن انتهى الرجل أخذوه مرة أخرى وأغلقوا الباب. وبعد ذلك عرفت أن ما سمعت قد يكون تسجيلا وليس

شيئا حقيقيا، وهى الطريقة المتبعة فى تحقيقات المخابرات والتى تمكنهم من ارهاب كل من يقومون باستجوابه، وهى طريقة تجعل من يقوموا باستجوابه على استعداد تام لاعطائهم ما يريدون.

وبعد الفترة التى قضيتها فى دورة المياه اقتادونى إلى منطقة الاستقبال، وهناك مكثت مقيدا ومعصوبا أيضا؛ و فى حجرة مجاورة لى سمعت صوتا مألوفا بالنسبة لى لسيدة تعمل صحفية كنت أعرفها جيدا، ولنسميها هنا «كليوباترا». وسمعتها تطلب مقابلة رئيس جهاز المخابرات وكانت طريقتها توحى بأنها تعرفه جيدا، وربما عن قرب. وكانت كليوباترا شخصية معروفة جدا فى القاهرة.

وكانت كليوباترا فتاة مصرية فاتنة وكانت لكثرة علاقاتها مشهورة ومعروفة من الجميع. وكانت تكتسب ثقة العديد من الناس، كما كانت واحدة من الصحفيين الذين يمكن الاعتماد على فطنتهم وذكائهم. وكان من الواضح أن المخابرات كانت ترمى إلى افزاعى عندما سمحت لى بسماع صوت كليوباترا التى كانت تعرفنى جيدا؛ فرجال المخابرات تصوروا أن معرفتى بأن كليوباترا هى مرشدة للمخابرات قد يفزعنى على أساس انها تعرف عنى الكثير. وهكذا قبل استجوابى استخدم معى رجال المخابرات كافة الوسائل التى يهدفون منها إلى تهديدى واخافتى. إلا أن رجال المخابرات كانوا فى وهم. وقد فاتتهم حقيقية مهمة وهى أن كليوباترا نفسها — والتى خضعت لابتزازهم - كانت موضع شك منى ومن أصدقائى، وبالتالى فإن كان هناك شىء مريب قد فعلناه - فرضا - فمن غير المنطقى أن نسمح لكليوباترا بمعرفة ذلك.

وحتى تلك اللحظة لم يكن لدى أدنى فكرة عن نوايا وبواعث من اعتقلونى. ولكن هؤلاء كانت لهم سبلهم الخاصة فى ايجاد أسباب للاعتقال، فقد يكون سبب ذلك اننى قريب للملك السابق فاروق ومن

ثم فأنا احتكارى رجعى وعدو للشعب ـ بحد تعبيرهم ـ هذا فضلا عن كونى متزوجا من فتاة أمريكية، وبالتالى فقد تم تجنيدى من قبل عملاء العدو وأصبحت أنا نفسى عميلا للـ C.I.A أقدم لهم المعلومات التى أحصل عليها باعتبار عملى كصحفى. كما كنت سابقا من طبقة ملاك الأراضى، وهذه الطبقة يراها الماركسيون أحط طبقات الانسانية.

وأود هنا أن أثير سؤالا اعتراضيا: هل كان صلاح نصر شيوعيا حقا؟ أعتقد ان الاجابة الصحيحة هى بالنفى. فأنا على يقين بأن كل المحيطين بعبدالناصر كانوا مجموعة من العبيد التى تردد الأكلاشيهات الماركسية دون فهم أو استيعاب، فهذه الأكلاشيهات ترجمت إلى العربية واستخدمت دون تمييز، وهى أكلاشيهات من قبيل «احتكارى، وامبريالى، وعبيد الامبريالية، وأعداء الشعب، والرجعيين» إلى آخره. غمرت مثل هذه الأكلاشيهات الاذاعة والتليفزيون، وأعمدة الصحف والجرائد اليومية. وحتى خطب عبدالناصر ذاتها اذا قمنا بتحليلها سنجدها مليئة بالشعارات والتعبيرات الماركسية ـ اللينينية . كل هذا أعطى انطباعا باتباع الشيوعية والماركسية، ولكن هذا لم يكن حقيقيا فكما ذكرت سابقا وُلِد المصرى ممثلا لديه القدرة على استخدام الكلمات بشكل مؤثر فى السامعين. وكنت أثناء استجوابى أحاول تهدئة نفسى واقناعها بأننى لست بين أيدى رجال مخابرات حقيقيين ولكن بين أيدى مجموعة من الجهلة الذين أفوقهم فهما وفطنة.

قطع على تفكيرى أمر بالوقوف للتحرك إلى جزء آخر من مبنى المخابرات. ووصلنا إلى مكان حيث نُزعت عنى العُصابة ووجدت أمامى مكتبا كان يجلسُ عليه رجل تبدو عليه ملامح الغضب والعدوانية، وكان يبدو وكأنه ضابط انجليزى، وكان يرتدى زى

اللورد كيتشنر وهـو الزى المميز للجيش المصرى آنذاك. وكان الرجل كما يبدو فى غـاية الغضب والتوتـر. وكان وجهه وعينـاه وكل ملامحه تعبر عن الغضب أيما تعبير. وبعـد برهـة أصـابتنى الدهشـة عندمـا سمعت الرجل يحدثنى بعربية جيـدة سائلا وبغضب. «هل تعرف أين أنت الآن؟» وقبل أن أجيب على السؤال خمنت أن الـرجل لابد أن يكون من أصل شركسى حتى يكتسـب هـذه الملامح. وعنـدمـا سكت لفترة أعـاد على السـؤال وهـو يـزأر فى وجهى. «هل تعـرف أين أنت الآن؟» فأجبت وأنا أهتز: «لعلنا فى المباحث». وعنـدما قلت ذلك وجدت الرجل الواقف بجـانبى يندفع نحـوى صافعـا اياى وهو يسبنـى. فعاد ذلك الضـابط وحدثنى قـائلا: «لست فى المبـاحث». أنت الآن فى المخابـرات العامـة للقوات المسلحة. فقلت. «أشعر الآن بـالراحة فقـد كنت أعتقد أنكم المبـاحث، وبما انكم تتبعـون القـوات المسلحـة فـلابـد أنكم ستعـاملـوننى بشكل عـادل». ولكن الضـابط لم يمنحنى الفـرصـة لاكمال حديثى ففزع فى وجهى قـائلا: «وماذا عن المؤامرة؟» فقلت بكل براءة: «أيـة مؤامـرة». فأعاد السـؤال بعد أن شتمنى؛ فقلت لـه: «أية مـؤامـرة تعنى»، فقـد سمعت عـن الكثير من المؤامـرات، كما تـوجـد شائعات عـديدة، ولكن ليست لدى أيـة معرفة كافية ومبـاشرة عن أية مـؤامـرة. فأجابنى بسرعـة: «أيها الكـاذب، نعلم أنك مشترك فى هـذه المؤامرة، فشركاؤك أدلـوا باعترافاتهم كاملـة، والآن يمكنك أن تتحدث وتعترف أنت أيضـا». فقلت: «أية شركاء؟» وهنـا اندفع الضابط نحوى وصفعنى وقال: «تحدث». وحاولت أثناء ذلك كله أن احتفظ بأعصابى هادئة فقـد كنت أشعر أن ما كـان يحدث معى لم يكن أكثر من مجرد مسرحية وزعت فيها الأدوار على مجموعة الممثلين.

وكان صلاح نصر حاضرا أثناء هذا كله ولكنه بقى صامتا برغم أنه العقل المدبر لكـل هذا؛ وكان يبـدو أنه يـريد أن يلعب معى دور الـولد

الطيب. وبعد ما صفعنى الضابط قلت له: «أرجوك هدئ نفسك ودعنا نتكلم بالمنطق فلست أنوى أن أخفى شيئا عنكم». كما أضفت قائلا: «وعلى أية حال يبدو لى انك لا تعرفنى جيدا ولذلك أقترح أن تعود للملفات التى تحتفظون بها عنى». وهنا أشار صلاح نصر للضابط فهدأ الموقف للحظة. وأرسل صلاح نصر طلبا للملف. وكنت منذ عام أو أكثر قد تعرفت على رئيس جهاز مخابرات القوات المسلحة وأرسلت له عددا خاصا من جريدتى التى كنت أصدرها فكان أن تسلمت خطاب شكر من المخابرات. وبعد دقيقتين وصل ملفى، وعندما فُتح وجدت فيه جريدتى والآن وبعد أن اطلعوا بالتفصيل على الملف تغيرت اتجاهاتهم بعض الشىء. وبعد ذلك وجه الضابط حديثه إلى قائلا: «نعرف انك رجل وطنى ولذا فنحن فى حاجة إلى مساعدتك. أخبرنا بكل شىء تعرفه عن المؤامرة». فشرعت أعطيه ملخصا عن كل الشائعات التى سمعتها، وهى تدور حول ثلاث مؤامرات يتورط فيها أشخاص مختلفين من القوات المسلحة، ولم يقتنع الضابط بكلامى فسألنى قائلا: «نريد أن نعرف دورك فى المؤامرة». فأجبتهم قائلا: «يمكننى فقط أن أخبركم بما أعلمه، فأنا لست جاسوسا أو كاذبا ولكنى مواطن صالح يرغب كل الرغبة فى مساعدة النظام والقانون. وفى تلك اللحظة جاءتنى فكرة ذكية، فقد كنت أعرف أن رجال المخابرات كانوا دائما يتفاخرون بالأفكار التى نقلوها عن الكتب وتلقوها فى كليات الشرطة عن التحقيق والاستجواب. ففى أكاديمية الشرطة بالقاهرة كانوا يتلقون مقررات خاصة عن طرق ووسائل استجواب الجواسيس وأسرى الحرب. ومن هذه المقررات تعلموا أن ردود أفعال الجواسيس وأسرى الحرب تختلف باختلاف شكل الاستجواب؛ فمن هؤلاء من يستجيب للتهديد باستخدام العنف البدنى، ومنهم من تؤثر عليه التهديدات بايذاء العائلة أو الزوجة أو

المقربين إليه، أما النوع الثالث فهو الذى يستجيب للتملق واللين.
وهكذا قررت فى تلك اللحظة أن أكون من الفئة الثالثة. ولتطبيق ذلك عمليا شرعت قائلا: «أعتقد انكم يمكن أن تستفيدوا منى استفادة قصوى، وكنت فى كثير من الأحيان أفكر فى المجيء بنفسى لتقديم خدماتى؛ فكما تعرفون أنا كاتب، وأعرف العديد من المعلومات بحكم عملى، فأنا أعرف معظم الدبلوماسيين بالقاهرة، وكثيرا ما كانوا يستشيروننى فى العديد من الأمور، ولا أخفى عليكم أننى كثيرا ما كنت أحصل على معلومات منهم دون أن يشعروا بذلك. وشعرت باطمئنان بالغ عندما رأيت أن مناورتى حققت هدفها. وهنا قال لى الضابط: «عادل بيه نحن أيضا كنا نتتبع مسارك باهتمام بالغ، فنحن نعلم جيدا مدى اسهامكم فى مجال الصحافة ونتطلع إلى مساعدتكم ايانا. هل ترغب فى سيجارة وبعض القهوة؟ أعتقد سنتعاون تعاونا كبيرا فى المستقبل، فالناس الذين تعمل معهم لا يقدرونك جيدا، ولكنك ستستريح معنا». وبالرغم من حيرتى إلا اننى لم أستفسر عن ماهية هؤلاء المفروض انى أعمل لحسابهم. لكن الضابط كان متيقنا من وجود علاقة وتعاون بينى وبين جهات أجنبية أو حتى جواسيس اسرائيليين. وفضلت أن أتركه هكذا. لكن ما أود أن أشير إليه هنا أن أناسا من عينة ذلك الضابط يفتقرون إلى المرونة فى التفكير التى تمكنهم من فهم أن رجلا مثلى ـ على الرغم من عدائه للسلطة ـ لايمكن أن يخون بلده. فمثل هذه الحسابات لم تكن واردة لدى هؤلاء الرجال الذين كانت تغلب عليهم النظرة التبسيطية للأمور التى لا تضع فى حسبانها معطيات الواقع والولاء لفكرة أو مبدأ، وهذه النظرة هى ذاتها التى سيطرت على ذهن رجال البوليس فى تلك الفترة الذين كان خيالهم يجعلهم يتعقبون مواطنين أبرياء ويلصقون بهم تهما مختلفة هى من محض الخيال، ولكن هذه التهم والشبهات كانت تستخدم بعد

ذلك (حتى لو كانت وهمية) فى استصدار قرارات باعتقال أناس معينين. وهذه الأوهام بعينها وضعت فى ملفى، ففى هذا الملف وصفت باعتبارى مواليا لأمريكا، كما أقوم باصدار جريدة بمساعدة نفوذ زوجتى. كما وُصفت كذلك بأنى أتعامل وأتعاون مع كبير الجواسيس الاسرائيليين فى القاهرة، وهو المستر «دينيك» الذى كان يعمل وكيلا لشركة كوداك فى مصر، كما وُصفت كذلك بأنى أتعاون مع السفارات الأجنبية والتى أحصل منها على تعليمات رؤسائى. عنصر آخر يدخل فى هذه العملية، وهو تقارير المخبرين القائمة هى الأخرى على الخيال والوهم. هذه التقارير يمكن أن يقتنع بها أى ضابط. بالاضافة إلى هذا كله وكما أشرت سابقا فإن القاعدة الأمنية التى كانت سائدة آنذاك هى أن عدم وجود أى دليل ضد المتهم هو أكبر دليل على خطورة هذا المتهم.

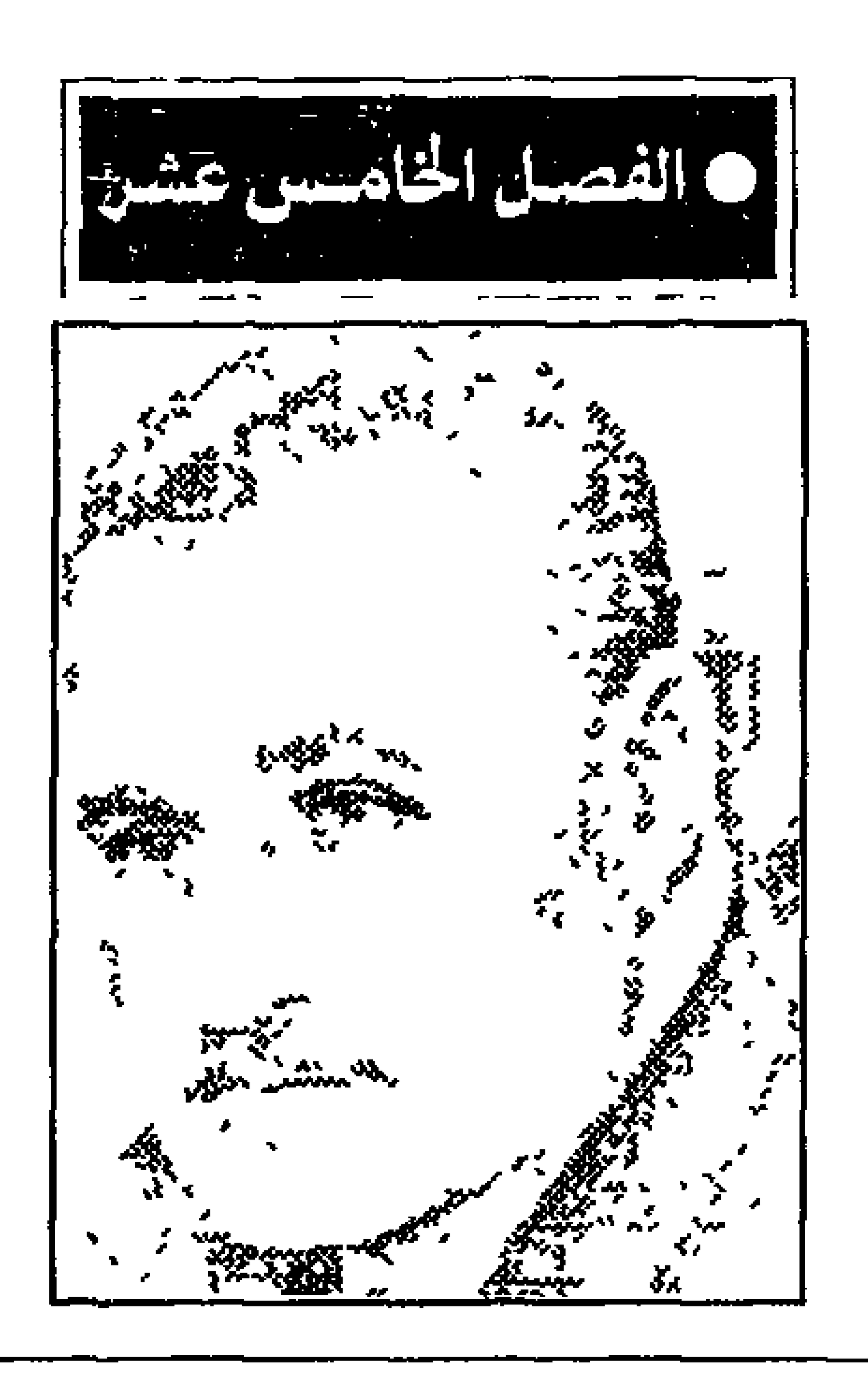
لنرجع الآن إلى عملية الاستجواب التى تعرضت لها. عندما نجحت مناورتى معهم بدأوا يعاملوننى معاملة جيدة، وبدأ صلاح نصر يلعب دور الطيب معى، فكان يقدم لى القهوة والسجائر كما أحضر لى كباب فى العشاء. وكنت أتقن معه دور ابن الذوات الأبله. وبدأ صلاح نصر يتحدث معى بشىء من الألفة فقال لى: «أنظر يا عادل، نحن فى أشد الحاجة إلى مساعدتك لنا فأنت تملك علاقات لا نملكها. فوكالات المخابرات الأجنبية كما تعرف تعمل من خلال السفارات، والأمريكان هم على رأس هذه القائمة، وإن لم أكن مخطئا فأنت على علاقة جيدة بالأمريكيين لاسيما أن زوجتك أمريكية. نريدك أن تعطينا معلومات كاملة عن الأمريكيين الذين تقابلهم، وقد تساعدنا هذه المعلومات على الوصول إلى الحقيقة فيما يتعلق بالمؤامرة ضد عبدالناصر. فقلت له: «ماذا تريد أن تعرف بالضبط؟» قال: «كل شىء، الأحاديث، والمعلومات التى حصلت عليها والحوارات التى أجريتها مع

الشخصيات المهمة وتقييمك لهذه الشخصيات». فقلت له: «ولكنى يجب أن أكتب كل هذا، فذاكرتي تحتاج إلى بعض التركيز والتفكير، ومن ثم لا أظن أن الطريقة المثلى لحصولك على هذه المعلومات يكون من خلال السؤال والجواب الشفهى». فابتسم صلاح وقال «اكتب ما يحلو لك ثم نتكلم بعد ذلك». فقلت له. «وطالما تريد وصفا كاملا للأحاديث والحوارات التى دارت بينى وبين الأجانب، فسأضطر لكتابتها بلغتها الأصلية أى بالانجليزية». فقال لى: «اكتب بالصينية إن أردت فلدينا أفضل المترجمين».

وكان الوقت قد تأخر فقد كانت الساعة قاربت الثالثة بعد منتصف الليل، وان الجميع قد تعبوا، وقال صلاح للضباط الآخرين «كل شىء قد أُعد ولن يكون هؤلاء مصدر مشاكل» وكان يشير على وآخرين كانوا معى، و فى النهاية قال لى: «عمت مساء» أراك فى الصباح.

ثم جاء حارس ووضع الأغلال فى يدى وثبت العصابة على عينى وعدت فى ذات الطريق الذى أتيت فيه فى الصباح، ووضعت فى سيارة كان بها آخرون أيضا، وكان البعض بجانبى يتأوه وآخرون يسعلون وانطلقت بى السيارة فى ظلام الليل.

● الفصل الخامس عشر



ثلاثة فى الشيخ

«هل ستأخذوننى إلى المنزل؟» كان حديثى إلى الحارس بينما كان يكبلنى، ولكنه قال لى: «لا فلم نفرغ منك بعد». انطلقت بنا العربة خلال الليل، وشعرت بوجود آخرين معى، بل وبدا لى أن هؤلاء الآخرين قد يكونوا أصدقاء لى أعرفهم. ففكرت أن أقول شيئا يعرف بشخصيتى. ولكنى أعدت التفكير فى ذلك فوجدت أنه

مــــن الأفضل لى ألا يكون لى اتصال بشخصيات هم موضع شبهات، فلماذا أعطى الفرصة لـرجال المخابرات للشك فى تصرفـاتى. وحاولت تخمين مسارنا من خلال وقفات السيـارة وتوجهاتها، وبدا لى أننا كنا نتحـرك فى دوائر، وفى بعض الأحيـان كـانت السيـارة تسرع بنـا، وفى أحيان أخـرى كانت تبطىء بشدة، وأظن أن ســائقى المخابرات كـانوا مـدربين على ادخـال الاضطـراب واللبس على نفـوس المتهمين، وبعـد حـوالى ٢٠ دقيقـة تـوقفت السيـارة فجـأة، ثم تحركنـا ببطء، وبعـد مجموعـة أخرى من الـدورات توقفنا ثـانية، وسمعت أصـواتا كثيرة منها أصوات كـلاب ضخمة تنبح بشكل وحشى، كما سمعت أصوات رنين لأغلال، كما سمعت النبرات العـالية والمميزة لضباط المخـابرات وهى تحمل الأوامر؛ وبعد توقف العربة خـرجنا منها الواحد تلو الآخر ثم اقتادونى إلى مبنى وفى احـدى حجراته تـركنى الحارس بعد أن فك القيود ونزع العصابة.

ولم تكن الحجـرة صغيرة، وكانت تحوى سريـرا معدنيـا فى احدى زواياها وكانت عليه أغطية بيضـاء نظيفة، وفى زاوية أخرى كان هناك كرسى خشبى، وكانت النافـذة فوق مستوى العين وكانت مغلقة، كما انت الحوائط مغطاة بـآيات قرآنية وبعض التوبيخـات والنقد الموجه حكومـة، فأحدهـم قد كتب مثـلا: «يومك قـادم أيها الطاغيـة». وقد حـاولـوا - كما يبـدو - مسح هـذه العبارات، ولكن على مـا يبـدو لم ينجحوا. وكـان من الواضح أن بعض المعتقلين مـن الاخوان المسلمين كانوا محتجزين بهذه الحجرة.

وبعد لحظـات من وجودى بالحجـرة شعرت بـالاحباط والغضب والتعب الشديد، فابتدأت أقول لنفسى: «ابعد عنك الاحباط وحاول أن تأخـذ قسطا من الـراحة، فخلعت سترتى، وتمددت على الفـراش، فلم تكن إلا لحظـــات حتى ذهبت فى نـــوم عميق؛ يبـــدو اننى كنت مرهقا للغاية.

جاء صباح اليوم التالى بسرعة؛ وفى السابعة صباحا أحضر لى جندى شاب كوب شاى، وأخبرنى بأن أسرع فى شربه لأن الرجل فى الغرفة المجاورة بانتظار دوره فى أخذ كوب الشاى، وبعد أن تجرعت الكوب أخذه الجندى وخرج، وأصبح هذا هو الروتين الصباحى للأسابيع القادمة ، ولكن هذا الروتين كان من أكثر اللحظات التى قضيتها فى السجن والتى أمدتنى بالطاقة ذلك لاننى كنت أشعر من خلالها اننى حر، ثم ما هى إلا لحظات بعد انتهاء كوب الشاى حتى أرجع بكيانى إلى جو الزنزانة. وقد ذكرنى هذا كله بالوصف الذى قدمه «أرتوركوستلر» للتجارب التى مر بها بطله وهو فى السجن وذلك فى روايته «ظلام فى الظهيرة». وكان بطل الرواية مثاليا للغاية، وكان دائما يقول لنفسه «ربما فعلا أستحق ما يحدث لى على أيدى هؤلاء الشيوعيين». ولكن مشاعرى فى السجن كانت أبعد ما تكون عن هذه البطولة الزائدة. فالأمر يختلف عندما تكون ضحية لأناس أذكياء ومتعصبين لفكرة أو مبدأ عن أن تكون ضحية لبعض الجهلة. وأتذكر فى هذا السياق قصة تكشف عن حمق وغباء رجال الشرطة فى ذلك الوقت؛ ففى أواخر أيام فاروق جاءت الأوامر بجمع كل الكتب الشيوعية من المكتبات. فجاء السؤال من أحد الضباط الذين يتمتعون ببعض الذكاء: «ولكن كيف يمكننا تمييز الكتب الشيوعية؟» فكانت الاجابة: «لا أعرف، ولكنى أقترح عليكم أن تستولوا على كل الكتب التى تحمل أغلفة حمراء، فهى الأكثر احتمالا أن تكون كتبا شيوعية».

وفى ذلك اليوم جمع البوليس مجموعة كبيرة ومتنوعة من الكتب ذات الأغلفة الحمراء تتراوح بين كتب الطبيخ وكتب المراهقين وكتب جوته، وأوسكار وايلد، وبودلير.

وتروى العديد من القصص والحكايات التى تظهر العقلية الأمنية التى كانت سائدة فى تلك الفترة وفى فترة حكم فاروق أيضا، فأتذكر أن

لـــوردا انجليزيا قد ألقى القبض عليه فى ميدان سليمان باشا وذلك فى أيام فاروق لا لسبب إلا لأنه يرتدى رابطة عنق «مقلمة» بألوان حمراء كما كان يحمــل نسخة من رواية «لـورانس داريل» «جـوستين» وكان غلافها أحمر.

وفى أحـد المرات ناقشــت الأمر مع أحـد أصــدقــائى وكان لـواء فى البوليس، فكـانت اجابته بسيطـة ومباشرة؛ لقـد قال: «من المفضل أن تقبض على مائة شخص بالخطأ من أن تدع مجرما يهرب».

وها أنا أجد نفسى الآن معتقلا لأسباب غامضة من قبل رجال أمن هم من نفس العينـة المشـار إليهـا فى القصــة الســابقــة وغيرهــا من القصص. وكـــان من الـواضـح أنهم ليس لـديهم أى شىء ضـــدى، ولكنهم كانوا فقط ينفذون الأوامر العليا.

وعلى الـرغم من أن القاء القبض علىّ واعتقــالى قد يكـون مرجعــه العداوات الكثيرة التى اكتسبتهــا نتيجة عملى بـالصحافــة إلا أن هناك عاملا آخر يجب تسجيله فى هذا السياق.

فبدايــة من أحداث عــام ١٩٥٦ بدأ الشيـوعيون يخترقـون جهاز الأمن المصرى بشكل ثابت. كما كـانت توجهـات جهاز الأمن فى الفترة التى سبقت القبض علىّ مـاركسية للغايــة، فكانت كل وســائل الاعلام بــلا استثناء تـردد شعارات الماركسيــة التى كـانت رائجة فى أجهـزة اعلام أوروبا الشرقية، فقـد تم وصفى أنا وأمثالى باعتبارنــا برجوازية خائنــة ومتعفنة؛ وفى ذات الـوقت فقد انتمى ضباط الجيـش الذين تم القــاء القبض عليهم (عويس وزمـلائه) إلى ذات الطبقة، وهى الطبقــة التى كان يسـمى الجهــاز الاعلامى أصحــابها بأعداء الشعب. ومن ثم كان يجب تطهير الجيش مـن ذلك الفساد البرجوازى. وفى ذلـك الوقت وتحت تلك الظـروف كـانت القيادة السيــاسيــة تتوقــع وجود ثــورة

مضادة تخرج من الجيش ويسهم فيها واحد مثلى له علاقات مقربة بالعائلة المالكة والعهد الملكى.

كما أن عبدالناصر فى ذلك الوقت ـ لأسباب سأفصلها فيما بعد ـ لابد أنه كان يشعر بالتهديد فى تلك الآونة لاسيما بعد انهيار الجمهورية العربية المتحدة وثورة السوريين فى دمشق. وفى تلك الظروف كان عبدالناصر يعتقد ان احتفاظه بالعناصر الشيوعية حوله قد يكون أفضل وسيلة لتأمين نفسه، وهذا كان طبيعيا بالطبع كما كان من الطبيعى أيضا أن يقوم الشيوعيون باستغلال هذه الفرصة أيما استغلال.

أما بخصوصى فقد أخذت قرارى فى اليوم السابق أن أدخل حرب ذكاء مع رجال المخابرات، كما كنت أهدف إلى تكوين استراتيجية مؤثرة للدفاع ضد أية اتهامات لم تتخذ شكلا محددا بعد. ومن ثم فكان من الضرورى لى أن أدخل فى مباراة ذهنية استخدم فيها ذاكرتى والمعلومات التى أحصل عليها حتى عشوائيا واستخدم فيها أيضا تفكيرى الهادىء وغير العاطفى فى التقييم الجيد لقوة خصمى، وماهية الذين اعتقلونى وطبيعة أسئلتهم ونواياهم. والخطوة الأولى التى كان على اتخاذها هى تحديد ماهية خصمى. هل هم الروس أم المصريون أم الأمريكيون؟

لكن قبل ذلك كله كان على أولا أن أراجع الموقف الاستراتيجى العام للمناخ المصرى فى تلك اللحظة التاريخية ومجموعة الأحداث التى قد تكون أسفرت عن تلك العداوات التى ظهرت على السطح.

والنقطة الأولى التى أود تناولها هنا هى تحديد مدى الاختراق الشيوعى لنظام الحكم المصرى آنذاك، والسؤال الذى طرحته على نفسى كان مايلى: كيف يمكن لأولئك العسكر الذين كان معظمهم ينتمى لطبقة ملاك الأراضى ـــ وذلك مع وجود استثناءات بسيطة

لبعض الذيـن كانوا ينتمـون للطبقات الفقيرة ــ أن يتحولـوا بين يوم وليلة إلى دعاة للماركسية؟ وكـان على أن أجيب على هذا السؤال وغيره حتى أتمكن من تحديد ماهية أولئك الذين ألعب معهم لعبة الذكاء.

وفى التاسعة صباحا وُضعت الأغـلال فى يدى والعصابة على عينى حسب الـروتين المتبع، وتم اقتيـادى إلى حجـرة فسيحـة ومشمسـة وهناك وجدت مكتبـا وأوراقا وأقلاما، كما قدمـوا لى فنجان قهوة. ولم يظهر صلاح نصر أو أى من الضباط الآخـرين؛ وعندما استفسرت عن ذلك أخبرونى. «أنهم يأتون فى الحادية عشرة».

وفى هـذه الغـرفـة جلست لأكتب تقـريـرا مفصـلا عن أنشطتى الصحفية ووضعى بصفة عامة كما طُلب منـى؛ فشرعت فى كتابة كافة التفـاصيل الخاصـة بكل الحوارات والأحـاديث التى كـانت لى مع أصدقـائى الأمريكيين على مدار السنوات الماضيـة، فكنت أكتب كل ما تحدثت بـه مع السفير «كـافـرى» نفسـه، وحـواراتى مع السكـرتير السياسـى والسكرتير الاقتصادى هـذا فضلا عن الملحـق العسكرى وممثلى الـ C.I.A وهكـذا ظللت طـوال اليوم أكتـب تقريـرا مفصـلا وشجعنى على ذلك أقداح القهوة والمشروبات الخفيفـة التى كانت تقدم لى. وجاء الليل وكنت مازلت أكتب؛ وفى الثانيـة صباحا حضر مجموعة من الرجال عرفت أنهم المترجمون، وكنت أرى فى عيونهم مدى الضيق الذى أصـابهم عندمـا رأوا كم الورق الـذى كان عليهم تـرجمته. وفى حوالى الثالثة صباحا جاء صلاح نصر ولكنه قال: «لم أطلب منك كتابة قصة حياتك». فقلت لـه: «ولكنك طلبت التفاصيل». فكان رده: «أكتب فقط قائمة بالموضوعات التى كنت تناقشها أنت وشركاؤك».

ومن ثم قمت بـانتقـاء قـائمـة بالموضـوعـات التى كتبت فيهـا فى الجريدة المصريـة الاقتصادية والسيـاسية، وكتبت هذه القـائمة التى كـانت تضم مـوضـوعات عـن الاقتصاد المصرى، والتـوجهـات ازاء

الشئون العالمية، وسياستنا تجاه افريقيا والشرق الأوسط، والخليج.
«هذا يكفى» كان حديث صلاح إلى «الآن وقع على هذا».

وقبل التوقيع أضفت ملحوظة فى النهاية قلت فيها «عندما كان يطلب منى معلومات مفصلة كنت أرسل لأصدقائى واحدة من أعداد جريدتى التى نوقش فيها الموضوع المطلوب بالتفصيل وأردت بذلك أن أضع نفسى فى وضع آمن، وذلك لأن الجريدة كانت تخضع للرقابة الحكومية، وكانت كل المادة المنشورة فيها معروفة للحكومة، وهذه الملحوظة بالطبع خففت من قيمة التقرير الذى كتبته باعتباره اعترافا منى أو شىء من هذا القبيل».

ولم يلحظ صلاح نصر الملحوظة التى كتبتها فى النهاية فقد كان يتكلم فى التليفون مع رئيسه قائلا «أخبار سارة لقد اعترف عادل ثابت اعترافا مفصلا».

لكن صلاح أصيب بالاحباط عندما اكتشف المترجمون الملحوظة التى كتبتها. وفى تلك الليلة أُستدعيت للمثول أمام وكيل النيابة وهناك كان بامكانى أن أتحدث بحرية فقد كان الرجل يمثل القضاء المصرى.

وكان حاضرا أيضا رجلان ممثلان عن جهاز المخابرات، وكانت عيناهما تنطق بالتهديد. وعندما بدأت الكلام وجهت حديثى لوكيل النيابة فقلت له: «أنا فى غاية السعادة للقائك ولكن قبل المضى فى التحقيق أود تسجيل شىء مهم وهو اننى أتهم الهيئة التى يمثلها هذان السيدان بأنها سعت بشتى الطرق لأن تفرض على أن أقول اننى خنت بلدى، وهذه تهمة أرفضها وأنكرها».

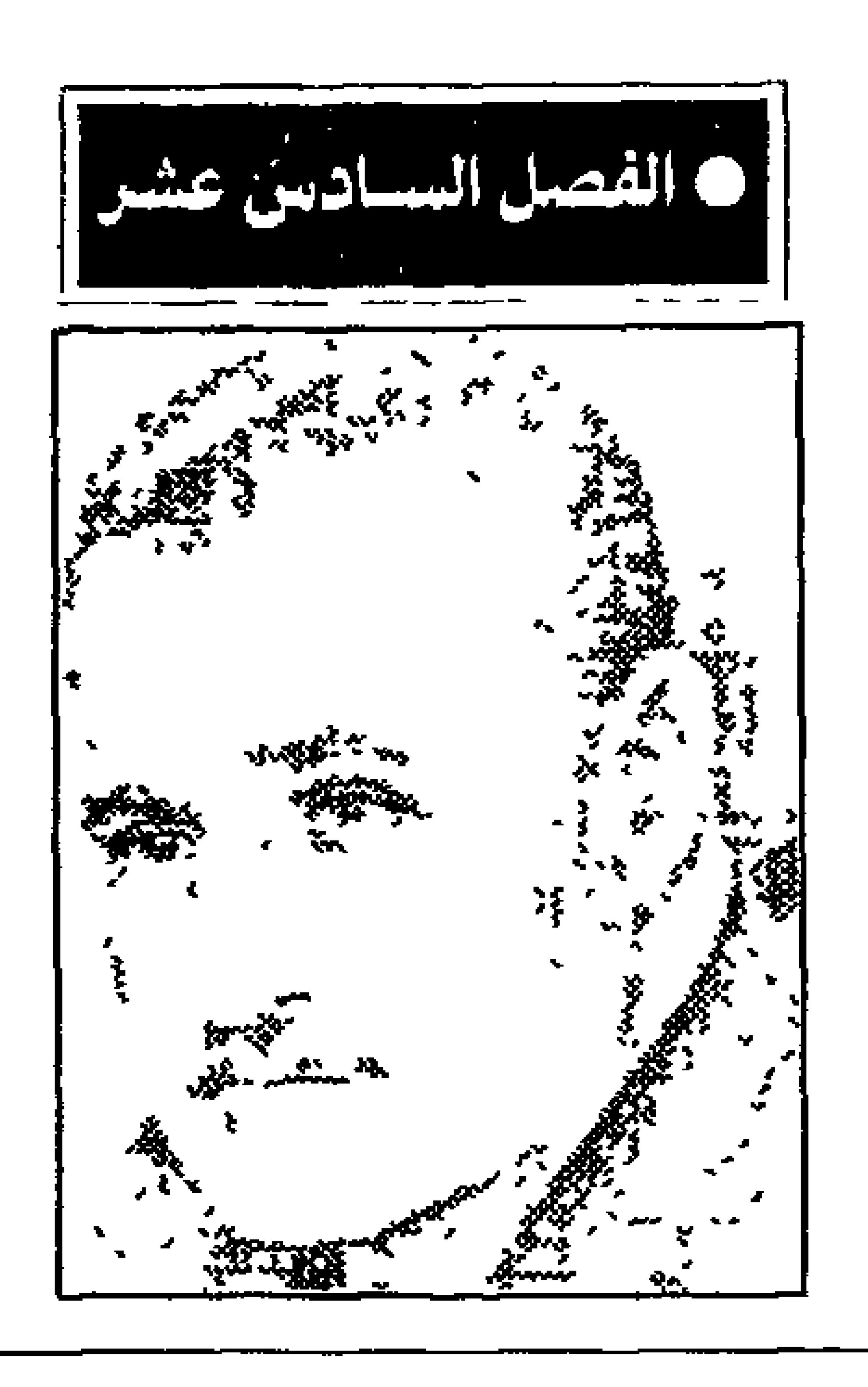
وعند ذاك تحرك الرجلان فى اتجاهى، ولكن وكيل النيابة تدخل وقال لى: هذا يكفى، اجلس وأجب على أسئلتى». وكان أمامه على المكتب كومة من الكتب برز منها كتاب بعنوان: «القط والفأر: تقنيات الاستجواب والتحقيق» وكان الكتاب صادرا عن دار نشر أمريكية

شهيرة. وأبرز وكيل النيابة ـ وكان اسمه عبدالغفار ـ التقرير الذى كتبته ووقعته وسألنى: «هل كتبت هذا؟» فأجبت: «نعم هذا خطى بالتأكيد، ولكنى أرغمت على الكتابة لمدة اثنى عشرة ساعة ولا أعرف بالضبط ماذا كنت أكتب». وحينئذ نظر إلى عبدالغفار نظرة حادة وقال: «إن رجلا يكتب مثل هذه الملحوظة فى آخر الورقة يعرف تماما ما كان يكتبه. لذا أجب على أسئلتى بوضوح».

وهكذا بدأنا سلسلة من الأسئلة والاجابات على نسق القط والفأر. وحاول عبدالغفار جهده لأن ينصب لى الفخ حتى يجعلنى أعترف بأننى كنت أعمل مع الأمريكيين. ولكننى كنت أعى تماما معطيات الموقف وكان من الصعب أن أقع فى مثل هذا الفخ.

ولست بحاجة إلى القول أن صلاح نصر استشاط غضبا لما آلت إليه الأمور. سيتضح ذلك فيما بعد عندما حاول النائب العام أثناء محاكمتى اقناع القضاة بأن الجواسيس المحترفين هم الذين لا تظهر أية دلائل ضدهم.

● الفصل السادس عشر



سجن باب الخلق

تقع منطقة باب الخلق فى ذلك الجزء من القاهرة الذى يفصل بين القاهرة القديمة، والقاهرة الجديدة. ويقع خلف ادارة الأمن العام بالقاهرة مبنى آخر على نسق السجون الفيكتورية، ويقول البعض أن هذا المبنى صمم على نسق سجون «ورم وود سكرابس» والمعروفة فى تاريخ انجلترا بأنها كانت تستخدم فى قهر

الفقـراء وذلك فى القـرن التـاسع عشر. وكـان هـذا السـجن هـو بيتى الجديد لمدة الخمسة شهور التالية.

وبعد قضائى اسبوعين داخل السجن الحربى أخبرنى الحراس أنه بـامكـانى أن آخذ حماما، كما سيعيروننى رابطة عنق حتى ألبسها لأظهر بمظهر لائق. وكان هذا محيرا لى، فهل كـان سيزورنا أحد رجال البـوليس البارزين أم ممثلـون عن هيئـة دولية أم كـانوا سيطلقـون سراحى واقتادونى إلى حـديقة المعسكر حيث وجدت فى انتظـارى أحد المصـورين وكان يصطحب معـه واحـدة من تلك الكاميرات العتيقـة. وقال الـرجل محدثا اياى: أنـا مصور صحفى من مجلـة المصور؛ إن عائلاتكم (فقد كان معى معتقلين آخرين) قلقة عليكم ونريد أن نريهم انكم بصحة جيدة. فنرجو أن تبتسموا».

منحنى منظر زرقـة السماء وزهور الحديقـة - بعـد اسبوعين من الحبس - احساسا بالمتعة والـدهشة فى ذات الوقت، فالسجن بالتأكيد يجعل المرء يعيد تقييم معاييره وقيمه.

وبعد عـدة أيام جاء الأمـر بمغادرة المعسكر؛ فـوصل إلى المعسكر ذات يوم مجمـوعة من العـربات الضخمـة التى تحمل رجال بـوليس وجنود مسلحين. وفى أثنـاء مغادرتنـا سنحت لى الفرصـة للمرة الأولى لالقاء نظرة على زمـلائى من المعتقلين، وكان من بينهم بعض الأجانب الذين وضعـوا فى عربات محترمة أمـا المصريون - وكنت معهم — فقد وُضعوا — كالبضائع - داخل عـربات بضائع يحرسها عـدد هائل من الحراس المسلحين.

وصلنا سريعا إلى سجن باب الخلق، ودخلت بنا العربات إلى ساحة السجن الذى كـان محاطا بعدد كبير من الحراس المسلحين. وخـرجنا جميعا من العربات ووقفنـا فى صف على حائط المبنى. وفوق رؤوسنا كانت هناك نوافذ مستطيلة لعديد من الزنزانات، وامتلأت هذه النوافذ

بـا المتفرجين. وحـا لما وصلنا صرخ هـؤلاء المتفـرجون فـوقنا قـائلين: «مرحبا بالجواسيس الأجانب». وكنا مازلنا مقيدين وحركتنا محدودة.

وواحدا تلـو الآخر أُخـذنا إلى داخل السجن وفكت قيـودنا ووضع كل واحد منا فى زنزانـة خاصة، وكانت الزنزانة لا تـزيد مساحتها على ٢×٤ متر، وعلى الأرض كـانت هناك بطـانية أكلهـا السوس، وقـال لى حارسى «هـذا فراشك» كما أشار إلى الحائط حيث كان معلقـا قربتين عتيقتين من الخيش، وقـال: «واحـدة لتقضى فيهـا حـاجتك وأخـرى للشرب، ولا تنزعج بخصـوص الاختيار فكلتـا القربتين قد استخـدمتا لذات الغرضين». وبعدئذ تركنى الحارس ومكثت داخل زنزانتى.

وجلست وحيـدا داخل سجنى، وكنت منـدهشـا اذ أن الأمـر كـان يتخـذ صفة الـدوام، ولكن أن أحبس من قبل وزارة العدل فهـذا يعنى وجـود محاكمة، ولكن لعلمى بأن عجلـة القضاء فى مصر تـدور ببطء شديد فقد أعددت نفسى لاقامة طويلة فى السجن. ومنحتنى الاقامة فى هـذا السجن الفرصـة لتقييم الأمـور تقييما دقيقـا أتمكن من خلالـه وضع الخطوات التى يمكن أن أتخذها.

وكـــان وضعى آنذاك فى منتهى السوء، فقد وجدت نفسى فجأة تحت رحمة جهاز أمنى مصـاب بالبارانويا ولـه مطلق الحرية فى فعل مـا يراه بضحـاياه. وهـذه الحرية الممنـوحة للمخـابرات مكنتهـا من استخـدام أعقد وسـائل التعذيب البـدنى منهـا والنفسى. وكان هـذا التعذيب يمكن أن يؤدى فى النهاية إلى الوفاة. والشىء المضحك أن هذا الجهاز كان يتذرع بالشعارات الوطنية والقومية لتبرير جرائمه.

وكـــان علىّ آنذاك أن أضع لنفسى منهجا يمكن من خلاله حماية نفسى من هذا الموقف المحبط الذى قد يؤدى بى إلى اليأس والاكتئاب. والسـلاح الـوحيـد الـذى كنت أملكـه لتحقيق ذلك هـو عقلى. إن عقل الانسان هـو كيان هائل وهو ــ عند المتصوفين ـ يمثل حلقـة الوصل

بين الانســان واللــه. ويمكن للعقل الانســانى أن يكــون مصــدر قــوة وطاقة كما يمكن أن يستخدم أيضــا لاستنفار قدرة الانسان وسلطته. وهذا ماكنت أحتاج إليه.

وكان الحراس المعينــون لحراستنا فى جهل شديد، وكــان منظرهم يوحى بالغلظة والعنف. ولكننــا فى نهاية الأمر كنا تحت رحمتهم وكان يجب على أن أضع ســلامتى وأمنى فى الاعتبــار. ولكنى عنــدمــا قيمت الموقف تقييما سريعــا وصلت إلى بعض النتائج. وأود هنــا أن أشير إلى كتاب كنت قــد قرأته منذ بضعــة سنوات بعنوان «الطــريق إلى وندور» وكان الكتاب يدور حــول سجين حرب أسر فى الحرب العالمية الأولى فى احد سجــون تركيــا، ويصف الكتاب كيف استطــاع هذا السجين ومن معــه الهروب من معسكر الأسرى مستغلين جهــل السجانين الأتــراك وايمانهم بالخرافــات. وكان حــراسنا هم أيضــا من تلك النوعيــة التى تعتقد فى عالم الجن والسحــر والأرواح الشريرة. دفعنى ذلك إلى اتخاذ بعض الخطوات البسيطــة والايجابية فى ذات الوقت. فبــاستخدام قلم رصاص مكسور وجدته على أرضية الزنزانة بدأت أنقش على الحوائط ســورتين من القــرآن، وبعض العبــارات التى تشير إلى الجن؛ وكــانت الآيــات التى كتبتها من ســورتى «الفلق» و«النــاس» اللتين ورد فيهما ذكر الجن كثيرا.

وكــان تأثير هــذه الكتــابــات سريعا، فعنــدمــا رأى الحراس هــذه الكتابــات كانوا يترددون فى دخول زنــزانتى، فقد قرأوا هذه الكتــابات وبــدأوا يظنــون اننى على اتصــال بقــوات الشيــاطين، وهكــذا بــدأوا يتجنبوننى باعتبارى رفيقا لقوات الشر والشياطين.

وبدأت أتقمس الدور، واستخدم الوعيد أحيانا مع بعضهم قائلا له بأنه سينقل إلى سجن الواحات كما كنت ألجأ للمديح وقول البشــارة فى أحيان أخرى اذا ما لزم الأمر ذلك.

- أما ردود أفعال الضباط المتعلمين الذين تناهى إليهم هذا الأمر فقد كانت مختلفة، فتقييمهم للموقف كان نابعا من خبرتهم بالظروف السياسية فى مصر، وعلى وجه الخصوص خبرتهم بألاعيب صلاح نصر. فأعتقد أن هؤلاء الضباط كانوا يعتقدوننى عميلا كبيرا للمخابرات المصرية تم زرعى داخل سجن باب الخلق لمراقبة السجناء الأجانب وعويس وزملائه فضلا عن طاقم السجن نفسه.

وبعد قضائى بعض الوقت فى السجن تعرفت على بعض زملائى واكتشفت أن الأجانب المعتقلين كانوا يمثلون البعثة الدبلوماسية الفرنسية بأكملها وعلى رأسها السفير «هنرى ماتى» كما كان معنا مصريون أيضا أشرت إليهم فى فصل سابق.

والجدير بالذكر أن وصولنا إلى هذا السجن أثر على الروتين المتبع فيه، فحالما وصلنا مع مجموعة المسجونين الأجانب وصلت الأوامر من الرئاسة بتهيئة السجن لاقامة الدبلوماسيين الأجانب.

لكننا سريعا ما وجدنا أنفسنا أمام الروتين والتقاليد العادية المتبعة فى السجن المصرى. فقد تم وضع السجناء من كافة الفئات مع بعضهم البعض، فاجتمع النشال مع القاتل مع اللص المحترف مع الجاسوس، إلى آخر هذه القائمة.

كما كان داخل السجن فئة «السبرسجية» الذين كانوا يجمعون أعقاب السجائر ويصنعون منها أرخص أنواع السجائر وهو ما كانوا يسمونه بالسجائر «السامسون أرضى». وكانت هناك فئة أخرى من المسجونين وهى تلك الفئة التى تأتى دائما فى الشتاء إلى السجن وذلك برغبتها فى الاستمتاع بدفء السجن ووجباته المنتظمة.

وعلى الرغم من أننا كنا فى زنزانات مفردة إلا أن فرصا هائلة قد سنحت لنا للتحدث مع بعضنا البعض وتكوين علاقات مع المسجونين الآخرين. فبعد الظهر كنا نضع الكراسى أمام باب الزنزانة ونقف

عليه حتى نصل للنافذة والتى كانت وسيلة الاتصال بيننا.

وكانت حياتنا الاجتماعية داخل السجن تبدأ فى السادسة مساء، فكنا فى ذلك التوقيت اليومى نتبادل الحديث مع بعضنا البعض حتى تعارفنا جميعا.

فضلا عن الدبلوماسيين الفرنسيين كان هناك ما يقرب من ستة جواسيس آخرين فى مجموعة الزنزانات المقابلة لزنزانتى، وكان على رأس هذه المجموعة اقتصادى كبير كان يمد سفارة الولايات المتحدة باحصائيات عن الانتاج الزراعى المصرى. واعتبر صلاح نصر ذلك جريمة تخابر مع الأعداء والتى كانت عقوبتها لا تقل عن ٦ سنوات سجنا مع الأشغال الشاقة.

كما تم القاء القبض على اثنين من موظفى السفارة الأمريكية بتهمة التخابر مع العدو. كما كان أيضا من بين المسجونين طيار مصرى اتهم باعطاء معلومات للأمريكيين عن الملامح الجغرافية لمطار القاهرة عند الهبوط، وهى حقائق يعرفها أى مسافر يصل إلى ذلك المطار.

وكان معنا أيضا سجناء آخرون بارزون هم القائمقام داود عويس ووحيد رمضان ولطفى واكد وضابط آخر. واكتشفنا بالتدريج أن هؤلاء هم الرجال الذين دبروا المؤامرة التى نعاقب نحن عليها. وكنت أشعر أثناء اقامتى داخل السجن بالعيون تحيط بى فى كل مكان لترى إن كان لى أى صلة بالدبلوماسيين الفرنسيين، ولذلك كان على أن آخذ حذرى.

● الفصل السابع عشر ●



حكايات من السجن

صحوت فى أحد الأيام على صوت منصور السجان الذى جاء لى قائلا: «ألكسندر بابادبلو السجين اليونانى يسبب لنا مشاكل فهل تأتى لنتحدث إليه انه يتصرف بطريقة جنونية». ولم أكن مندهشا فبابادبلو كان فى حالة سيئة فى الفترة الأخيرة. وعلى مدار الاسبوع الماضى كنت دائما أسمع صوته فقد كان جارا لى

بالزنـزانة المجاورة، وكان صـوته يأخذ فى الخفوت شيئـا فشيئا وهو يقول: «أنا ألكسنـدر بابادبلو.. أحضروا لى القنصل اليونـانى وتوقفوا عن تعـذيب أمى». وتكـررت هـذه الجملـة مـرات عـديـدة على مـدار الاسبوع الماضـى وكان يقطعها صرخـات السجانين وضرباتهم. فقلت لمنصور: «أعتقد انك تعرف أن الرجل مجنون» فابتسم منصور قائلا. «يقول الدكتور أنه يدعى ذلك ويخدعنا».

وكنت قد ظللت أسمع بـابادبلـو يعيد نفس جملته طـوال الخمسة أيـام الماضيـة دون أن يتـوقف، ولا يمكن لأى شـخص عـاقل أن يظل يصرخ طـوال هـذه الفترة؛ فقلت لمنصـور: «اذا أردتنى التحـدث إليـه يمكننى أن أفعل ذلك لأجلك». فأخذنى منصور إلى زنزانته.

وفى زنزانتـه رأيت بابادبلو عبـارة عن كومة من اللحم متكـومة فى أحد أركان الحجـرة، وحا لما رأى منصور بدأ يـرتعش ويهذى. فنظرت إلى منصور وقلت لـه: «لماذا ضربته؟. ماذا ستفعل اذا قتلتـه بالخطأ؟» هل تعتقـد أنه سيـوجـد من يدافع عنك؟ وهـذا الـرجل يونـانى، واذا تـدخلت سفارتـه فسوف تحدث مشكلـة دولية وسـوف تعتبر قاتـلا وسوف تحاكم مـن قبل السلطات، فلماذا اذن تتحمل مسئـولية ضرب سجين أعزل؟ فنظر إلى منصـور وكأنه لا يفهم: «لقد قال الـدكتور انه يدعى». فقلت له: «أنت تعلم يامنصور أن الدكتور لن يعطى تشخيصا آخر فهـو يخشى أن يتهم بأنه شريك للسجين. وعلى أية حـال لابد أن تترك الزنزانـة الآن حتى لا تزداد حالته سـوء». فحاولت الاقتراب منه وتهدئة روعه، وكنت أكلمه بـالفرنسية. وبعد حوالى نصف سـاعة بدأ يسترد وعيه ويشعر بـالأمان. وكنت أعرف أن هذا الـرجل بحار، وكان يعمل كربان لنادى يخت المعـادى. وفى ذلك الوقت كنت أملك أنا أيضا يختا اسمـه «سياستـا ٢» فقلت له: «بـابادبلـو أريد أن أريـك صورة لقـاربى، وعلى قطعة من الـورق ابتدأت ارسم صـورة لياختى، وهـذا

جعله ينتبه فأخذ منى القلم وابتدأ هو أيضا يرسم صورا لليخت الذى يحلم به وابتدأ يناقش معى تفاصيل التصميم الذى رسمه.

وقلت لـه ألا يخشى منصـــور واذا احتـاج إلى أى شىء يمكنـه أن ينادينى وسأحاول أن أساعده.

وعنـدما عـدت إلى زنـزانتى بدأت أفكـر فى أمـر أطباء هـذا السجن وغيرهم ووجدت أنهم قد يضحوا أحيانا كثيرة بضميرهم حتى يضعوا أنفسهم فى مأمن من التصرفـات الحمقـاء لـرجال مخابـرات أصيبـوا ببارانويا متطورة أدت بهم للشك فى كل من حولهم.

وهنا قصـة أخرى جديـرة بالذكـر. فهى قصة عن سجينين كـانا يقيمان بزنـزانتين قريبتين، احـدهما يدعـى محمد والآخـر على وكان محكـوما عليهما بـالاعدام لقتل سيـدة سيئة السمعـة. وكان «فـؤاد» زميلنـا الآخر ذا ميـول صحفيـة فـرتب حوارا مع «محمـد». وكـانت القصة مثيرة ومزعجة. فقد كان محمـد يعمل على عربة حنطور. وكان قد أتى إلى امبابة ببعض الحلى والمجوهـرات ليقدمها لزوجة المستقبل. وأول ما جاء قـرر أن يقضى ليلته مع عاهرة، وعند عـودته فى الصباح إلى حنطـوره اكتشف أن رفيقة الليل سرقت منـه المجـوهرات، فـرجع إليها ولكنها أنكـرت سرقتها لتلك المجوهرات. ولكنه وجدهـا فى غرفتها فتشاجر معها وقتلها.

ونصحـه صـديق لـه ادعى معـرفته بـالقـانـون بأنـه اذا اعترف شخصان بجريمـة واحدة فلا يدان أيهما. فقرر محمد أنـه بحاجة إلى شريك. ولم يجد أمامه إلا على، وكان هو أيضا صاحب الحنطور، وكان على يحب محمـد ويطيعه، وسريعـا ما ألقى البـوليس المصرى القبض عليهما للمحاكمـة. والمشكلة الكبرى أن المحـامى الذى عينتـه المحكمة للـدفـاع عنهما لم يكـن فى تـركيـزه الكـامل فكـان يقـول أقل القليل

للمحكمة، كما كان القاضى فى ذلك اليوم فى حالة سيئة، وهكذا حكم على الاثنين بالموت.

وبعد بضعة أسابيع جاء الأمر بتنفيذ حكم الاعدام فى محمد وعلى، وكان من المقرر أن ينفذ الحكم فى الثامنة من صباح اليوم التالى، فأعد طاقم السجن نفسه للتقاليد المتبعة فى مثل هذه الحالة. وكان الجميع يشاركون الاثنين آخر لحظات حياتهم.

لكن القصة انتهت نهاية سعيدة فقد قال القاضى اندراوس لمسئولى السجن. «هل أرسل الخطاب للنائب العام؟ واذا حدث ذلك فلا يمكن أن ينفذ الحكم دون استماع». فوصل مأمور السجن وسأل: «اية خطاب؟ لابد أن خطأ قد حدث». ولم يكن المأمور قد أرسل هذا الخطاب، فانتهزنا جميعا هذه الفرصة وقلنا للمأمور انه اذا لم يكن هذا الخطاب قد أرسل فسنعتبره مسئولا عن عدم تنفيذ القانون تنفيذا صحيحا وسنتخذ كافة الاجراءات ضده.

فأرسل هذا الخطاب إلى النائب العام الذى عندما تعرف على تفاصيل القضية أمر باعادة النظر فيها، وفى خلال بضعة أشهر أطلق سراح محمد وعلى.



● الفصل الثامن عشر ●

الجانب المشرق من الحياة داخل السجن

ليس السجن بهذه الدرجة من السوء وذلك اذا ما تآلفت معه. فقد كانت الشهور التى قضيتها فى باب الخلق مريحة نسبيا. فقد كان من الممكن لزوجتى وعائلتى أن يزورونى كل اسبوعين، وكان الطعام والأشياء الأخرى ترسل لى من البيت، كما لا يمكن للمرء أن ينكر ميزة العزلة بعض الوقت عن متاعب وضوضاء الحياة بالخارج.

كما لا يمكن انكار بعض الامتيازات الأخـرى، فقد كانت تلك الفترة من أكثـر الفترات التى أكلـت فيهـا جيـدا فقـد كـانت زوجتى وأمى تتنافسان فى احضار أشهى الطعام وألذه.

كما كان هناك بعض الأصدقاء الذين يرسلون بعض الكتب للقراءة وكذلك بعض المجلات.

وعندما جاء ميعاد المحاكمـة شعرنا بأنها ستتحول إلى شـىء أشبه بقصص أليس فى بلاد العجائب.

وعندما قـرأ الأستاذ محمد عبدالله المحامى الـذى وكلته عنى قرار الاتهام ضحك وقـال لى: لقـد قرأت هـذه القضيـة، ولا أرى أى شـىء ضدك، وكل ما أريدك أن تقوله هو الجملة التالية. لا يوجد دافع أو أقل سبب يجعلنى أخون بلـدى، ولا تزيـد على ذلك حرفـا، وثق انك برىء ولا يوجد دليل ضدك والمحكمة ستحكم بعدم توافر الأدلة.

وباقتراب المحاكمة بدأنـا نشعر ببعض الراحة داخل السـجن، كما أن السجانين أنفسهم كانوا يشكون فى مدى صحة التهم الموجهة إلينا؛ وفى ذات الـوقت كانت القضيـة قد أصبحت شأنـا عالميـا، فالجنـرال ديجول فى باريس كـان فى غاية الغضب وذلك بسبب المعاملـة السيئة التى عومل بها الدبلـوماسيون الفرنسيـون، فبهذا الشكل كانت مصر قد اخترقت القوانين الدولية الخاصة بالحصـانة الدبلوماسية. وهكذا التقطت وسائل الاعلام العـالمية هذه القصة وعقـدت فرنسا الكثير من الاجتماعات والمباحثات الـدبلومـاسية التى كـانت تهدف إلى اصدار عقوبات اقتصادية ضد القاهرة.

وفجأة وجدنـا وفدا فرنسيـا قادمـا خصيصا من باريس لمتـابعة مجريات القضية، وكانت سيماهم توحـى بأنهم كانوا خارجين لتوهم من فيلم سينمائى عن الثورة الفرنسية.

وفجأة سمعنا صوتا جهوريا روتينيـا قائلا: «محكمة» معلنا بذلك

عن بدأ مجريات المحاكمة، فوقفنا ودخل القضاة وتبعهم عضو لنيابة، ثم جلسنا جميعا. وكان النائب العام على نورالدين قريبا جدا منى ولاحظت بشيء من الهلع أن له ستة أصابع فى كلتا يديه. وكان ضخما وطويلا وذا وجه وسيم، وكانت ملامحه توحى بأنه من خليط مصرى تركى.

وهكذا بدأت المحاكمة واستمرت قرابة شهرين، وكنا نغادر السجن لمدة ٤ أيام فى الاسبوع، كما كنا نظل لعدة ساعات نشاهد النيابة وهى تحاول أن تثبت للقضاة أننا جواسيس خطرون. ولكن النيابة فشلت فى الربط بين مؤامرة داود عويس والقبض على الدبلوماسيين الفرنسيين وذلك لعدم وجود أية دلائل. كما فشلت النيابة فى تقديم دلائل على عمل البعثة الفرنسية بالتجسس، فالتقارير السياسية التى كانوا يكتبونها لم تكن إلا من قبيل عمل الملحقين السياسيين الروتينى.

كما اتضح أن كل الاتهامات التى كانت موجهة إلى المصريين كانت تفتقر لأية دلائل واضحة، وهكذا ظهر سريعا أن القضية لم تعد اعدادا جيدا كما اتضح أن النيابة قد أعدتها بشكل يظهر تحيزا وهو الأمر الذى هز صورة عبدالناصر وصورة مصر بالخارج.

وجاءت قضيتى فى نهاية المحاكمة. وكان على نورالدين فى اضطراب بالغ ولم يكن يدرى ماذا يفعل. واختار فى النهاية أن يكون مدخله معتمدا على الاتهامات السريعة والمبالغ فيها وغير المنطقية. فقال: «ان عادل ثابت هو نتاج للملكية التى ترعرعت فى قصور الرجعية؛ كما كان يتآمر مع عناصر رجعية فى الجيش لاستعادة الحكم الملكى، كما كان يعمل أيضا مع السفارات الأجنبية لتجنيد جواسيس مصريين».

ولكن القاضى وجه حديثه إلى على نور الدين قائلا : « ولكن

ما الوقائع التى تستند إليها؟ وما التهمة التى تدين بها عادل ثابت؟».

فقال على نورالدين: «انه يستخدم وظيفته كناشر ومحرر فى عمل لقاءات مع الوزارات وأخذ معلومات مهمة منهم يرسلها إلى عملائه الأجانب» قال القاضى: «أذكر لنا أسماء هؤلاء الوزراء». فقال نورالدين «دكتور محمد فوزى وزير الشئون الخارجية والدكتور عبدالمنعم القيسونى وزير المالية والاقتصاد».

وهنا تدخل محامى قائلا للمحكمة. «أرجو من المحكمة استدعاء هؤلاء الوزراء ليوضحوا لنا موقفهم».

وأخيرا مثلت أمام القاضى وكان سؤاله لى: «ماذا لديك لتقول عن نفسك؟» فقلت: «لا يوجد سبب أو دافع يجعلنى أخون بلدى». فقلت: «اذا كان كل الدبلوماسيين الأجانب يعتبرون جواسيس والاتصال بهم يعد جريمة فإننى أطلب من المحكمة توجيه الاتهام إلى كل الصحفيين وكذلك رئيس قسم الاعلام القائمقام عبدالقادر حاتم لأنه يرتكب مثل هذه الجرائم يوميا». وهنا توقف القاضى عن الاستجواب؛ وقررت الهيئة التأجيل بعض الوقت لدراسة القضية.

وهكذا انتهت هذه القضية بتصريح من على نورالدين قال فيه: «لمصلحة السياسة العليا قررت هيئة المحكمة تأجيل هذه المحاكمة لأجل غير مسمى، وسيطلق سراح المتهمين حالا».

وهكذا انتهت قضية الدبلوماسيين الفرنسيين وشركائهم المصريين. وأود الاشارة هنا إلى شىء مهم وهو أن تأجيل القضية كان سببه هو الضغط على الفرنسيين حتى يوقعوا على معاهدة «إلإيان» (١٨ مارس ١٩٦٢) والتى تمنح الجزائر بمقتضاها الاستقلال، ويطلق سراح بن بيلا ورفقائه.

ومن ناحية أخرى فقد بقى داود عويس وزملاؤه لعدة سنوات داخل السجن.

● الفصل التاسع عشر ●



ثارات تابعت الخروج من السجن

بعد اطلاق سراحى قال السيد عبدالغفار مساعد النائب العام: «آمل ألا تحبطك هذه التجربة، فأنت باعتبارك صحفيا يجب أن تتوقع مثل هذه الأشياء، فالحياة فى نهاية الأمر هى سلسلة من الكبوات والانتصارات، ويجب أن نعبر فوق لحظات الكبوات فى حياتنا.

وكــان هذا مــا وجب على فعله لاسيما اننى تيقنت أننــا فى قبضة نظام حاكم قوى وشاذ يقوم عليــه أناس متعسفون، ويلعب فيه دورا بارزا جهاز مخابرات يعامل عبدالناصر باعتباره إلها.

ولم يكن هــذا إلا ميراثا ورثناه عــن الفراعنــة حيث الفرعــون الإله يتلوه الكهنة حتى أقل المواطنين.

بعد بضعــة أيام اتصل بى المحــامى قائلا: «ألم تــذهب إلى القصر الجمهورى لتشكر الرئيس على اطلاق سراحك».

فقلت: «ولماذا أشكــره وهـــو الـــذى سجننى فى الأصل». فقـــال المحــامى: «لك الحرية فى أن تحب حيــاة السجن ولكن فكــر فى زوجتك وعائلتك».

وهكـــذا وعلى مضض منى ذهبــت إلى قصر القبـــة حيث استقبلت استقبالا حافــلا وكأننى سفير، وقال لى أمين القصر «اتبعنى» فأخذنى إلى حيث وجــدت أمامى كتــابــا فخما مجلدا بــالــذهب وقال لى: «هنــا يمضى الخارجون من السجن وسأملى عليك الصيغة المتبعة».

فكتبت «يعبر عــادل محمود ثــابت الخارج من السجن حديثــا عن شكره وامتنانه لسيادة الرئيس لاطــلاق سراحه. امضاء: عادل ثابت ــ خادمكم المطيع.

وكنا قبل اطلاق سراحنــا قد مررنا ببعض الاجــراءات، فمررنا أولا على وزارة الداخليــة للحصول على التصريح الــرسمى والوثــائق التى تثبت اطلاق سراحنا، وهناك تم تصويــرنا واعطاؤنا رقما يوضــح ذلك بملفــاتنا فى الــوزارة، ومثل هذه الملفــات يمكن استخــدامها فيما بعــد كذريعة للقبض علينا من يعرف؟

وبعـــد اطــلاق سراحى قضيــت بقيــة العـــام على يختى الخاص بــالاسكندريــة طلبا لبعض الــراحة والاسـترخــاء. ولكن ما أفســد على الأمور انى اكتشفت انى كنت مراقبــا، وخلصت إلى النتيجة التالية: إن

المخابرات لم تفرغ من أمرى بعد

تطورت الأمور بعد ذلك عندما زارنى صحفى كان معروفا عنه أن المخابرات قد ابتزته وضمته إليها؛ وكانت المخابرات تستخدمه كحلقة الوصل بينى وبينهم؛ وعندما جاءنى قال لى «لدى رسالة لك. إن الرئيس يفتقد جدا مقالاتك ويريد أن يعرف متى تنوى الكتابة مرة أخرى؟ وقد لقيت مقالاتك عن البعثية استحسانا كبيرا. ويطلب منك الرئيس أن تكتب مقالتين أو ثلاثة لمجلة روز اليوسف وستتلقى مقابلا جيدا».

لقد أزعجنى هذا أيما ازعاج. فإذا وافقت على العمل لحساب حكومة عبدالناصر فسأصبح جزءا من هذا النظام، وفى نفس الوقت اذا رفضت كنت سأغامر بقضاء فترة أخرى فى السجن. لقد كان الموقف معقدا للغاية. وكنت قد قدمت على طلب تأشيرة خروج ولكن مرت شهور، ولم أحصل عليها فتقدمت بشكوى لوزارة الداخلية. وهناك أخبرنى اللواء سيف اليزل صراحة أن الأمر ليس بيديه. فالمخابرات هى التى كانت تتحكم فيه. كما أخبرنى أيضا بكل شجاعة «ولا تظن انه كانت لنا يد فى القبض عليك وايداعك السجن، لم يكن الأمر بأيدينا. فقد كنا نعرف جيدا انك برىء».

وفى تلك اللحظة تيقنت بأننى يجب أن أغادر البلد لاسيما أيضا أن على صبرى الذى لجأت إليه لحل مشكلتى قد قبض عليه. لقد بدأت أعراض البارانويا فى الظهور والتطور لدى الرئيس.

● الفصـــل العشرون ●



الشعب إلى شارع نتى

أصبح السؤال الـذى كان يـؤرقنى فى تلك الفترة هو كيف يمكننـى الخروج من مصر دون أوراق سفـــــر ودون أن يتعقبنى رجـال المخـابرات. إن فكـرة الهروب على يختى هى فكرة مستبعـدة لسببين: أولا لم يكن هذا اليخت صالحا للابحار فى المياه العميقـة، ثانيا. فقد كان هذا اليخـت مرصودا من قبـل رجال المخابرات. وفكرت

بـالسفر بأوراق مـزيفـة، ولكن لـلأسف قضيتى الأخيرة جعلت منى شخصا معروفا للجميع.

وبعـد أن أعيــانى التفكير ابتسم لى القـدر عنـدمــا قـابلت «بيتر مايررانـك». و«بيتر» كان صحفيا ألمانيا يعمل مـراسلا لجريدة «داى فيلت» التى تصدر فى هامبورج. وكـان كثير الذهاب إلى ليبيا من خلال حدود السلـوم. وفى أحد أحاديثى عـرض على المساعدة بـالدفع بى إلى ليبيا، وهو عرض لم يمكننى تجاهله.

ونـاقشت مع بيتر الخطط الممكنـة لمثل هـذه العملية. وقـررنـا أن أختبىء فى مـؤخـرة عـربتـه «الأوبـل»، وحتى يمكننى التنفس ثقبنـا الافريز خلف الكراسى الخلفية.

وكـانت الخطوة التـاليـة هى التفكير فى استراتيجيـة ما لتشـويش انتباه رجـال المخابرات. وكانت هـذه خطتى: فقد أشعت اننى سأعمل فى مجال تعويم السفن وسـأستخدم «يختى» كبدايـة، فقد كـان هناك العديد من السفن الغـارقة فى الاسكندرية، ومن المؤكـد أن هذه الفكرة قد تثير الشك باعتبار اننى يمكننى الهرب باستخدام يختى.

وبالفعل لكى أسبغ المصداقية على هذه الشائعة توجهت إلى صديق لى من رجـال الأعمال وكتبت معـه عقدا لـرفع سفينـة غـارقة فى قنـاة السـويس، ولكى تنجح هـذه المهمـة طلب منى احضـار بـالـونتين ضخمتين، وكانت هذه البالونات ثقيلة للغاية، فالواحدة منها يمكن أن ترفـع من ٤٠ إلى ٦٠ طنا، وعنـدما تملأ هـذه البالونـات فإنها تجذب الأنظـار فوضعت تحت مـرأى من المخبرين الـذين كانـوا يراقبـوننى واحدة من هـذه البالـونات أمام منـزلى، وبالفعل كـان لهذه المناورات آثـارها الكبيرة فقـد وصلنى من الاسكندريـة أن عدد المخبرين الـذين يراقبون يختى قد زاد.

وفى نفس الـوقـت أعـددنـا خطـة بسفــر زوجتى وابنى الصغير

بالطائرة إلى فرانكفورت، فقد كانت زوجتى تحمل الجنسية الأمريكية ولا يمكن لأحد أن يمنعهما من السفر كما كان ابنى محمود صغيرا. وكنت أعددت لأن أقوم بعملية المخابرات يوم الجمعة حيث أن نسبة كبيرة من رجال المخابرات يأخذون اجازاتهم الاسبوعية فى ذلك اليوم. وبعد توديع زوجتى وابنى خططت للذهاب إلى الاسكندرية لقضاء اليوم مع والدى ووالدتى الذين لم أخبرهما بأية تفاصيل عن خططنا.

وسبب اخفائى لهذه الأسرار عن والدى اننى كنت أريد حمايتهما وابعادهما عن أى موضوع يتعلق بى حتى لا يتعرضا للأذى.

وبدلا من العودة إلى القاهرة قضيت المساء مع صديقة روسية قديمة كانت مهمتها هى أن تذهب لوالدى بعد رحيلى لتطمئنهم علىّ.

وفى الخامسة صباحا وصل بيتر بعربته الأوبل ومعه زوجته وابناه، وبالسيارة انطلقنا جهة الغرب نحو مرسى مطروح ومنها إلى السلوم ثم الحدود الليبية.

ووصلنا إلى الحدود ورسم بيتر على وجهه ابتسامة عريضة وجهز بعض علب السجائر التى قدمها لرجال الجمارك والبوليس، وحيث أنه كان معروفا من الجميع فلم تتعرض السيارة لتفتيش كبير.

وهكذا انطلقت بنا السيارة حتى وصلنا إلى الجانب الليبى؛ وأصبحت أخيرا بعيدا عن متناول الخطر.

وعلى مسافة معقولة من الحدود توقف بيتر بالسيارة حتى يخرجنى، وكنت قد قضيت فى مؤخرة السيارة قرابة الساعة ووجدت نفسى داخل ليبيا وكان معى جواز مصرى ولكن بدون تأشيرة، وكان لى بعض الأصدقاء فى ليبيا الذين بامكانهم تسهيل الأمور فأحد أصدقائى كان يدعى محمد على نشأت كان يعمل مستشارا اقتصاديا للحكومة الليبية وكان بامكانه تدبير كل شىء.

وانتقلنا بالسيارة إلى بعض مدن ليبيا حتى وصلنا إلى «تريبولى»

وكان الأمن شديدا فى هذه المدينة، ولم يكن بامكانى أن أنزل فى أى فندق دون أوراق السفر. فاتصلت فى الصباح بالدكتور العنيزى مدير البنك الوطنى، ووعدنى بأن يكلم رئيس الشرطة وطلب منى أن أمر عليه؛ وبعد ذلك علمت منه بأن رئيس الشرطة ينصحنى بعدم الظهور على السطح لأنه كانت لديه أوامر بالقبض على أى لاجئ مصرى، كما لم يرد الملك ادريس حدوث أزمة مع عبدالناصر؛ كما نصحنى رئيس الشرطة بالتوجه إلى سفارة المملكة العربية السعودية لأطلب اللجوء.

ولحسن حظى تدخل القدر للمرة الثانية فقد قابلت أحد أصدقائى القدامى مصادفة وكان اسمه محمد على كرامر، وكان «كرامر» واحدا من أبرز تجار المجوهرات فى القاهرة، وكان قد أسلم وأصبح أحد أعضاء جماعة الاخوان المسلمين. وكنت منذ فترة قد تعرفت على صديق آخر يدعى «كيث كولينز» كان قد ترك مصر بعد الشك فى عمله كجاسوس، وكنت قد سمعت أنه أصبح يعمل فى مجال البترول. وسألت «كرامر» عنه فقال لى أنه فى ناديه الذى يملكه وأنه سيذهب إليه الآن. وذهبت مع «كرامر» لأجد نفسى وكأننى فى قطعة من كاليفورنيا فقد أعد كيث هذا النادى الذى يطل على الشاطئ بحيث اكتسب طرازا أمريكيا محضا.

واستقبلنى كيث بالأحضان وأعطانى حجرة فى فيلته الفخمة وقضيت فيها بضعة أيام من الترف والمتعة.

وكانت الخطة أن أستعير جواز «بيتر» وبعد اقلاع الطائرة يذهب كل من كيث وبيتر للابلاغ عن سرقة جواز «بيتر».

ومر كل شئ بسلام، وكان هناك احتمال ضئيل أن يتكلم ضابط الجوازات الألمانية، فألمانيتى لم تكن على مايرام. ومن حسن حظى أن مغادرة ليبيا كانت تتطلب وجود ثلاثة تأشيرات: واحدة من وزارة الداخلية وأخرى من البنك الوطنى وثالثة من ادارة المخابرات، وهذا

العدد الكبير من التأشيرات لم يعط الفرصة لضابط الجوازات للتفكير فى أى شىء آخر. وهذا ما حدث بالفعل. فالموظف فحص التأشيرات وختم الجواز ثم حيانى فى النهاية.

والشىء الذى أفزعنى انى سمعت فى الميكروفون أن السيد بيتر مايررانك كان مطلوبا فى مكتب آليطاليا (وهى شركة الطيران) أفزعنى ذلك أشد الفزع، ولكنى عندما ذهبت وجدت أن الأمر كله انه كان لى باقى نقود لدى مكتب الطيران.

وفى النهاية أقلعت الطائرة وتطلع إليها بيتر وكيث بارتياح شديد، ثم أرسلا برقية إلى زوجتى تقول: «ستصل البضاعة المطلوبة إلى فرانكفورت على رحلة آليطاليا رقم ١٥ بعد الظهر».

وفى ذلك الوقت كانت زوجتى قد اصطحبت محمود إلى حديقة الحيوان، وعندما عادا وجدا البرقية، وبعد دقائق معدودة كنت قد وصلت إلى الفندق، واجتمع شمل الأسرة من جديد.

الفهـــرس

الصفحة

تمهيـــــــد ٥
مقـــدمـــة ٩
الفصل الأول: الأيام الأولى للثورة........................ ١٧
الفصل الثانى: الجريدة الاقتصادية السياسية المصرية........................ ٢٩
الفصل الثالث: البحث عن أولاد الناس........................ ٣٥
الفصل الرابع: العلاقات مع الولايات المتحدة........................ ٥٧
الفصل الخامس: الثورة المضادة واستبعاد نجيب........................ ٦٥
الفصل السادس: رحلة إلى فلورنسا: اجتماعات ولقاءات خطرة........................ ٦٩
الفصل السابع: لا شيء غير الحقائق عن مصر........................ ٧٧
الفصل الثامن: ما العروبة ومن العربى؟ ٩١
الفصل التاسع: الشرق وحرب السويس........................ ٩٧
الفصل العاشر: حرب السويس عام ١٩٥٦ .... ١٠٥
الفصل الحادى عشر: زيادة النفوذ الشيوعى........................ ١١٣
الفصل الثانى عشر: مشاكل فى سوريا ـ مؤامرة ضد الرئيس........................ ١١٩
الفصل الثالث عشر: عواقب قضية المؤامرة........................ ١٢٧
الفصل الرابع عشر: فى سجن الفراعنة الاستجواب على الطريقة الأمريكية. ١٣٣
الفصل الخامس عشر: فى اليوم التالى: ظلام فى الظهيرة........................ ١٤٥
الفصل السادس عشر: سجن باب الخلق........................ ١٥٣
الفصل السابع عشر: حكايات من سجن باب الخلق........................ ١٥٩
الفصل الثامن عشر: الجانب المشرق من الحياة داخل السجن........................ ١٦٣
الفصل التاسع عشر: قرارات ما بعد الخروج من السجن........................ ١٩٧
الفصل العشرون: الهروب إلى خارج مصر........................ ١٧١

رقم الايداع ٣١٦٥ / ٩٧
الترقيم الدولى
I. S. B. N 977 - 08 - 0591 - 2



بالرغم مما أصابه من أضرار على أيدى «الناصرية» فهو ينظر بعين التقدير لذكرى «عبدالناصر».. إنه يطالب بمبدأ العدل..

مؤلف هذا الكتاب.. أعد من قبل كتابا عن «فاروق.. الملك الذى غدر به الجميع».. وطالب بمبدأ العدل لفاروق.. وهاهو الآن يطالب بذات المبدأ: العدل لجمال عبدالناصر.. فى كتابه الجديد «عبدالناصر.. والذين غدر به».

هذا الكتاب يظهر فى الوقت المناسب.. لأن جزءا كبيرا منه يشير إلى «أمراض الرئيس».. وتأثير ذلك على السياسة والمجتمع..

فى وقتنا الحاضر ونحن. والعالم. نكاد نتخلص من آثار آزمة الخليج التى نتجت عن عونة تصرفات صدام حسين.. مازال بعض كتاب والمؤرخين يقارنون بين عبدالناصر سدام حسين.. ولكن ذلك فى رأى مؤلف كتاب بعيد تماما عن الحقيقة فعبدالناصر لم يكن أبدا شخصا دمويا.. لقد واجه ناصر هزائم عسكرية وسياسية إلا أنه لم يقم بانتقامات دموية ضد المجتمع من أجل بقائه فى الحكم بعكس ما فعله صدام حسين..

أول دليل على ذلك أنه رفض نصائح بعض زملائه من الضباط الأحرار بقتل الملك فاروق.. لكنه عارضهم فى أفكارهم وظهر بإنسانية تجاه الملك والعائلة المالكة.

أيضا.. كان عبدالناصر مريضا بالعديد من الأمراض (مثل السكر والبارانويا) والتى كانت من الممكن أن تجعله يقوم بأعمال دموية.. ولكن ورغم هذه الضغوط فقد رحل عن عالمنا وهو برىء من وصفه بالوحشية..

إن عبدالناصر فى رأى المؤلف له الحق مثل فاروق فى أن ينصفه التاريخ.